# الكتـاب الرابـع

## الفصل الأول

**1**- وتـأتي بعـد ذلـك مـن حيـث الترتيـب[1]، سـلتيا الـتي وراء الألـب[2]. وكنـت قـد وصفت[3] الملامح العامّة لتكوين هذه البلاد وحجمها؛ أمّا الآن فينبغي أن نتحدّث عنها بالتفصـيل. فبعضـهم مـثلاً قسـمها إلى 3 أقسـام، ودعـا سـكّانها أكويتـانيين، وبلجيكيين، وسلتيين[4]. وبحسب هـؤلاء الكتّاب، أن الأكويتانيين لا يتميّزون بلغتهم فقط، إنّما ببنيتهم الجسدية أيضاً؛ فهم أشبه بالإيبيريين منهم بالغلاطيين؛ أمّا باقي السكّان فإنهم يذكروننا من حيث مظهرهم الخارجي بالغلاطيين، ومع أنهم لا يتحدّثون لغة واحدة، إلاّ أن لدى بعضهم سمات لغوية ضئيلة الشأن. وعلاوة على هذا فإن بناءهم السياسي ونمط عيشهم مختلفان بعض الشيء كذلك. وعلى هذا النحو دعا الكتّاب المذكورون قبيلتيّ سكّان البيرينيه اللتين يفصل بينهما جبل كيمين، أكويتانيين وسلتيين. ولكن، كما قيل آنفاً[5]، إن هذه السلتيا تحدّها من الغرب جبال البيرينيه التي يشاطئها البحر من الجانبين: البحر الداخلي والبحر الخارجي؛ ويحدّها من الشرق نهر الرين الذي يجري موازياً للبيرينيه؛ أمّا ما يخصّ الجهة الشمالية والجهة الجنوبية، فإن المحيط يطوّق البلاد من جهة الشمال (بدءاً من الأطراف الشمالية للبيرينيه)، حتّى مصبّ نهر الرين؛ ومن الجهة المقابلة يطوّقها البحر عند ماساليا، وناربون، وآلبا، ابتداء من ليغوريا حتّى منابع الرين. ويمتدّ جبل كيمين بزاوية قائمة حتّى البيرينيه، عابراً وسط السهول لينتهي عند مركز هذه السهول[6]، قرب لوغدون، ويقارب امتداده هذا 2000 مرحلة. وهكذا دعوا القبائل التي تشغل الشطر الشمالي من البيرينيه، ابتداء من بلاد كيمين حتّى المحيط- شطر منها على هذا الجانب من نهر غارومنا، دعوها بالقبائل الأكويتانية. ودعوا بالسلتيين القبائل التي تمتدّ أراضيها بالاتجاه الآخر حتّى البحر، على مقربة من ماساليا وناربون، وتلامس بعض جبال الألب؛

ودعوا الباقي من القبائل التي تقطن ساحل المحيط حتّى مصبّ الرين، وكذلك بعض القبائل التي تستوطن محيط الرين والألب، دعوها بالقبائل البلجيكية. وهذا ما قال به أيضاً قيصر الإلهي في «مذكراته»[7]. أمّا أغسطس قيصر فقد قسم سلتيا التي وراء الألب إلى 4 أقسام، وألحق السلتيين بمقاطعة ناربونيتيس، والأكويتانيين بالمقاطعة عينها، كما فعل قيصر، مع أنه ألحق بهم 14 قبيلة من القبائل التي تستوطن بين غارومنا ونهر الليغير؛ ثمّ قسم ما تبقى من البلاد إلى قسمين: ألحق قسماً بلوغدون حتّى مناطق الرين العليا[8]، وألحق القسم الآخر بأراضي البلجيكيين[9]. والجغرافي ملزم بأن يتحدّث عن الفوارق الفيزيائية والقبلية، إذا كانت تستحقّ الذكر؛ أمّا مختلف التقسيمات السياسية التي أجراها الحكّام (لأن هؤلاء يلائمون إدارة الدول مع الظروف الراهنة)، فإنه يكفي أن نعطي هنا لمحة عامّة عنها؛ بينما ينبغي ان يكرّس العرض العلمي للتقسيمات الأخرى.

**2-** هذه البلاد ترويها كلّها الأنهار: بعضها يجري من الألب، والأخرى من كيمين والبيرينيه؛ ويصبّ بعضها في المحيط، والأخرى في بحرنا. والمناطق التي تجري هذه الأنهار عبرها، أكثرها مناطق سهلية، ومرتفعات فيها قنوات صالحة للملاحة. وكانت الطبيعة نفسها قد شكّلت مجاري الأنهار، فجاءت متلائمة بعضها مع بعض بحيث يمكن نقل البضائع من بحر لآخر من غير صعوبات تذكر؛ فلا ينقلون البضائع هنا إلاّ لمسافات قصيرة، وبسهولة ويسر عبر السهول، لكنّ المسافة الأكبر من طريق النقل، بالأنهار: بعضها مع المجرى إلى فوق، وبعضها مع المجرى إلى تحت. ولرودان في هذا الميدان بعض التميّز، فروافده من مختلف الجهات، كما قلت آنفاً[10]، أضف إلى هذا أنه يتّصل ببحرنا الذي يعدّ أفضل من البحر الخارجي، كما أنه يجري عبر بلاد هي الأكثر خصوبة في هذا الجزء من العالم. فمقاطعة ناربونيتيس كلّها تنتج الثمار نفسها التي تنتجها إيطاليا. وعندما تتقدّم شمالاً، ونحو جبل كيمين، ترى كيف تنتهي بلاد كروم الزيتون والتين، لكنّ الثمار الأخرى لا تزال تنمو. والعنب في المناطق الشمالية الأبعد، هو الآخر ينضج بصعوبة. أمّا باقي البلاد كلّه، فإنه ينتج كميات كبيرة من الأقماح، والدخن، والبلوط، وشتّى أنواع القطعان، وهذه المساحات كلّها أراضي حراثة، ما عدا الأجزاء التي تعوق المستنقعات والأدغال استثمارها. ولكنّ الكثافة السكّانية في هذه الأماكن عالية أيضاً، إلا أن الفيض السكّاني هو السبب على أغلب تقدير[11] وليس دأب الناس واجتهادهم. وتتميّز النساء هنا بخصوبة عالية، وهن معيلات جيدات، على العكس من الرجال الذين أكثرهم مقاتلون، وليسوا

فلاحين. لكنّهم مرغمون الآن على ممارسة العمل الزراعي وترك السلاح. وأنا أقول هذا قاصداً سلتيا التي وراء الألب كلّها؛ وإنني أريد أن آخذ الآن كلّ قسم من أقسام هذه السلتيا الأربعة، وأتحدّث عنها كلّ على حدة، فأصف ملامحها العامّة. وأولها ناربونيتيس.

**3-** يشبه شكل هذه البلاد شكل متوازي الأضلاع تقريباً، لأنها محدّدة من جهة الغرب بجبال البيرينيه، ومن الشمال بجبل كيمين؛ ويشكّل جهتها الجنوبية البحر الواقع بين البيرينيه وماساليا، أمّا الجهة الشرقية فتشكّلها جزئياً جبال الألب، وكذلك المدى الفاصل المأخوذ على خطّ مستقيم مع الألب بين الألب وسفوح كيمين التي تمتدّ حتّى رودان لتشكّل زاوية قائمة مع خطّ الألب المستقيم المذكور. ويجاور الجهة الجنوبية مباشرة، ما عدا الشكل المذكور، الساحل الذي يلي، حيث يقطن الماساليون والسالي وصولاً إلى بلاد الليغوريين، إلى الأجزاء الواقعة على جانب إيطاليا ونهر فار. ويعد هذا النهر كما أشرت من قبل[12]، حدّاً بين ناربونيتيس وإيطاليا. وهو في الصيف نهر هزيل، لكنّه يتّسع في الشتاء إلى عرض 7 مراحل. ومن هذا النهر يمتدّ ساحل البحر حتّى معبد أفروديت البيرينيّة. ويشكّل هذا المعبد الحدّ الفاصل بين هذه المقاطعة - ناربونيتيس - والبلاد الإيبيرية، مع أن بعضهم يرى أن المكان الذي يقوم فيه نصب نصر بومبيوس، هو الحدّ الفاصل بين إيبيريا وسلتيا. والمسافة من هنا إلى ناربون 63 ميلاً رومانياً، ومن هنا إلى نيماوس 88، ومن نيماوس عبر أوغيرن وتاروسكون إلى ما يسمّى بالمياه السيكستية الدافئة[13] الواقعة على مقربة من ماساليا، 53، ومن هنا إلى أنتيبوليس ونهر فار 73؛ وعليه يكون الامتداد الكلّي للخطّ الساحلي 277 ميلاً. لكنّ بعضهم كتب إن المسافة من معبد أفروديت حتّى نهر فار تساوي 2600 مرحلة، وأضاف بعضهم الآخر 200 مرحلة أخرى، لأنه ثمّة اختلاف في نسبة المسافات. ففي الاتجاه الآخر، عبر منطقة الفوكونتيين وكوتيوس، من نيماوس حتّى أوغيرن وتاروسكون، الطريق هي هي، لكنّها تمتدّ من هناك عبر نهر درووينسيا وعبر كاباليون 63 ميلاً حتّى حدود الفوكونتيين وبداية العبور عبر الألب؛ ومن هنا حتّى قرية إيبرودون 99 ميلاً؛ ثمّ 99 ميلاً أخرى عبر قرية بريغانتيوس وقرية سكينغوماغ ومعابر الألب حتّى أوكيل، وهي النقطة الحدودية لمنطقة كوتيوس. وابتداء من سكينغوماغ تدعى البلاد إيطاليا؛ والمسافة من هنا حتّى أوكيل 28 ميلاً.

**4-** لقد تأسّست ماساليا على أيدي الثوكيين، وهي تقع في منطقة صخرية. فميناؤها يقوم عند قدمي صخرة لها شكل المسرح يتّجه نحو الجنوب. والصخرة نفسها

والمدينة كلّها، محصّنتان تحصيناً قوياً، على الرغم من حجم المدينة الكبير. ويقوم على الرأس البحرية هنا الإيفيسيوس، وكذلك معبد أبوللون الدلفي. ويعدّ هذا الأخير معبداً مشتركاً لدى الإيونيين كلّهم، بينما يعدّ الإيفيسيوس معبداً مكرّساً لأرطميس الأفسسية فقط: يروى أنه عندما أبحر الثوكيون من موطنهم الأم، تلقوا نبوءة تأمرهم بأن يأخذوا لهم دليلاً من أرطميس الأفسسية. فنزل بعضهم في أفسس لكي يستعلم عن كيفية الحصول من الإلهة على ما تنبأ لهم به الكاهن المتنبّئ. ويقال، إن الإلهة ظهرت في الحلم لأريستارخا، وهي واحدة من أكثر النسوة وقاراً في المدينة، وأمرتها أن تبحر مع الثوكيين وتحمل معها نسخة من رسم الإلهة، كانت موجودة بين باقي المقدّسات؛ وبعد أن تحقّق هذا، وإذ باتت المستعمرة جاهزة، لم يكتف الثوكيون ببناء معبد لأرطميس وحسب، بل قدموا الأريستارخا أسمى آيات التبجيل وعيّنوها كاهنة؛ وبعد ذلك أخذ سكّان المدن المستعمرات الثوكيون، يبجلون هذه الإلهة في كلّ مكان أمام جميعهم، ويحتفظون باكسوانون[14] وفق النموذج عينه، ويحافظون على العادات الأخرى كلّها كما كانت قائمة في الميتروبوليا.

**5-** يتمسّك الماساليون بنمط إداريّ أرستقراطيّ يلتزم التزاماً صارماً بالقوانين. وقد أنشؤوا مجلساً من 600 شخصية تشغل هذا المنصب مدى الحياة؛ ودعي هؤلاء «تيموخي»[15]. وتقف على رأس هذا المجلس 15 شخصية من بين التيموخي؛ وقد فوّض هؤلاء بالسلطة التنفيذية لإدارة الشؤون اليومية. وكان ثمّة ثلاث شخصيات تتمتّع بالسلطة العليا وترأس هؤلاء الخمسة عشر. ولكنّ أيّاً من هؤلاء لا يحقّ له أن يكون تيموخاً إذا لم يكن قد أنجب، أو لم يكن ينتمي إلى عائلة تتمتّع بحقوق المواطنية على مدى ثلاثة أجيال. وقوانينهم إيونية، وهي علنية بأمر من الدولة. ومع أن الأراضي التي يملكونها مزروعة بشجر الزيتون وكروم العنب، إلاّ أنها فقيرة بالأقماح بسبب عدم استواء سطحها؛ ولذلك منح الماساليون ثقتهم للبحر أكثر من اليابسة، ففضّلوا استخدام مواهبهم الفطرية لأعمال الملاحة. وفيما بعد مكّنتهم بسالتهم من الاستيلاء على عدد من السهول المجاورة، وبفضل هذه القوة القتالية عينها أسّسو مدنهم، وأنا أقصد هنا إلى مدنهم المحصّنة[16] التي بنوها في إيبيريا لمواجهة الإيبيريين. وعلّم الماساليون الإيبيريين عبادتهم الوطنية، عبادة أرطميس الإفسسية، حيث بات هؤلاء يقدّمون قرابينهم بحسب الطقس الإغريقي. وأسّسوا كذلك رويه أغاثا، وهو حصن [للدفاع] ضدّ البرابرة الذين يقطنون حول نهر رودان. وبنوا تافروينتيوس، وأولبيا، وانتيبوليس، ونيقيا بهدف الدفاع ضدّ قبيلة السالين، وقبيلة الليغوريين اللتين تقطنان الألب. وعند الماساليين دار لبناء السفن وترسانة لإصلاحها. فقد كانت لديهم في الأزمنة

الماضية أعداد كبيرة من السفن، والأسلحة، والأدوات الصالحة لأعمال الملاحة، كما كانت عندهم أيضاً آلات لحصار المدن والقلاع؛ وبمساعدة هذا كلّه استطاعوا أن يواجهوا ضغوط البرابرة، ويكسبوا صداقة الرومان؛ ففي حالات كثيرة قدموا للرومان خدمات مهمّة، كما ساند الرومان جهودهم أيضاً. وعلى أيّ حال، بعد أن أخضع سيكستوس الساليين، وبنى غير بعيد عن ماساليا مدينة[17] دعاها باسمه و«بالمياه الدافئة» (يقال إن بعضها تحوّل إلى مياه باردة)، لم يكتف بإسكان حامية رومانية هناك، إنّما طرد البرابرة من الساحل البحري الذي يقود من ماساليا إلى إيطاليا، لأنّ الماساليين لم يكونوا قادرين على وضع حدّ نهائي لعدوان هؤلاء عليهم. لكنّ سيكستوس أرغم البرابرة على التراجع إلى أجزاء الساحل التي تقوم فيها موانئ جيّدة، على مسافة 12 مرحلة؛ وفي الأجزاء الصخرية، على مسافة 8 مراحل. وأعطى سيكستوس الأراضي التي أخلاها من البرابرة إلى الماساليين. وثمّة في أكروبوليس الماساليين كثير من التقدمات التي اقتطعت من الغنائم الحربية التي غنموها في المعارك البحرية التي انتصروا فيها على أولئك الذين نازعوهم أملاكهم البحرية. وعليه يمكننا أن نقول، إن حسن الطالع رافق الماساليين في الأزمنة القديمة على وجه العموم، خاصة في صداقتهم مع الرومان؛ ونحن يمكننا أن نسوق كثيراً من الأمثلة على هذا؛ ونشير في السياق إلى أن «كسوانون» أرطميس القائم فوق هضبة الأفينتين، كان الرومان قد أقاموه وفق النموذج الموجود عند الماساليين. وفي زمن الصراع بين بومبيوس وقيصر، وقف الماساليون إلى جانب الطرف المهزوم، فخسروا بذلك الجزء الأكبر من أسباب رخائهم. ومع ذلك بقيت علامات الكدّ ومحبة العمل القديمة حاضرة لدى السكّان، خاصة لدى بناء الأبراج القتالية ومعدّات السفن وتجهيزاتها. ولكن منذ أن أخذ البرابرة الذين يقطنون إلى الشمال من الماساليين، يتواصلون مع الثقافة، وتحوّلوا بفضل الرومان من الحرب إلى نمط العيش المدني وممارسة الأعمال الزراعية، فَتَرَ اهتمام الماساليين بالأعمال المذكورة. وهذا ما يدلّ عليه نمط العيش السائد عندهم الآن؛ فقد التفت المثقفون كلّهم الآن إلى فن البلاغة، والعمل بالفلسفة؛ ولذلك، فإنه على الرغم من أن المدينة لم تتحوّل إلى مدرسة لتهذيب البرابرة إلاّ منذ وقت قريب، إلاّ أنها نجحت في أن تجعل من الغلاطيين أصدقاء للهلنستية إلى درجة أن هؤلاء باتوا الآن يدوّنون وثائقهم باللغة الإغريقية؛ وفي الوقت الراهن جذبت المدينة كبار النبلاء الرومان الساعين لتحصيل المعرفة، فبات هؤلاء يأتون إليها لا إلى أثينا البعيدة. وإذا رأى الغلاطيون هؤلاء الناس، واستغلّوا في الوقت نفسه ثمار السلام، كرّسوا أوقات فراغهم لهذا النمط من العيش عن طيب خاطر، ولا ينسحب هذا على أشخاص أفراد وحسب، بل على المشاعة

كلّها؛ وعلى وجه العموم، هم يستقبلون عندهم الصوفيين[18]، وبعضهم يدفع لهؤلاء من حسابه الخاص، بينما يتلقى الآخرون أجرهم من المدينة بالطريقة النظامية، مثلهم في هذا مثل الأطباء. وللدلالة على بساطة نمط عيش الماساليين وعفّتهم، يمكننا أن نسوق الآتي: إن أكبر مهر عروس عندهم، هو 100 ذهبية، إضافة إلى 5 ذهبيات للفستان، و5 أخرى للحلي الذهبية؛ وليس مسموحاً بأكثر من هذا. واحتراماً للصداقة القديمة بين الماساليين والرومان، تعامل قيصر والأباطرة الآخرون، باعتدال وتسامح مع الأخطاء التي اقترفها الماسليون أثناء الحرب، فابقوا للمدينة على استقلالها الذاتي الذي كانت تحظى به منذ البداية؛ ولذلك لم تخضع ماساليا ولا المدن التابعة لها لسلطة الولاة الذين كانوا يعيّنون على المقاطعة[19]. وهاأنذا قد قلت عن ماساليا ما يكفي.

**6**- بينما تميل بلاد الساليين الجبلية أكثر فأكثر من الغرب نحو الشمال، وتتراجع عن البحر بالتدرّج، فإن الساحل ينحدر غرباً؛ وإذ يتقدّم إلى الأمام إلى مسافة قريبة من مدينة الماساليين، إلى حوالي 100 مرحلة قبل رأس بحرية كبيرة على مقربة من أحد مقالع الحجارة، ابتداء من هنا يتوغّل الخطّ الساحلي عميقاً في الشاطئ ويشكّل قبل بلوغ قطاع أفروديت المقدّس (أي رأس البيرينيه)، خليج غلاطيا (ويدعى أيضاً، الخليج الماسالي). وهذا الخليج خليج مزدوج، لأنه ينقسم إلى شطرين عند القوس الذي يشكّله هو نفسه. ومرّة أخرى يدعى الخليج الأكبر من هذين الخليجين بالخليج الغلاطي؛ وفيه يصبّ روادان؛ أمّا الخليج الأصغر، الواقع قبالة ناربون، فإنه يمتدّ حتّى البيرينيه. وعلى هذا النحو فإن ناربون تقع على مصبّ أتاك وبحيرة ناربونيتيس؛ وهي أكبر ميناء في هذه البلاد، مع أنه ثمّة مدينة تقع غير بعيد عن روادان، وهي ميناء له أهمية كبيرة جدّاً- مدينة أريلاتا. ويقع هذان الميناءان على مسافة واحدة بعضهما عن بعض كما عن الرأسين البحريتين المذكورتين: ناربون عن قطاع أفروديت المقدّس، وأريلاتا عن ماساليا. وعلى جانبيّ ناربون تجري أنهار أخرى؛ منها التي تجري من جبال كيمين، ومنها من جبال البيرينيه؛ وتقع على هذه الأنهار مدن (يبحرون إليها مع المجرى إلى فوق بسفن صغيرة)؛ ومن البيرينيه ينبع النهران روسكينون وإيليبيريس؛ وتقوم على كلّ منهما مدينة تحمل الاسم نفسه؛ وثمّة عند روسكينون، غير بعيد عن البحر إلى الأعلى، بحيرة ومنطقة مستنقعات فيها كثير من مناجم الملح التي تحتوي على «أحفورات من السمك الأحمر الذقن»[20]، لأنك إذا حفرت هناك حفرة بعمق قدمين أو ثلاثة أقدام، وغرزت الحربة في المياه الطينية، فإنك قد تصيد سمكة كبيرة؛ فهذه الأسماك تتغذى على الطين، مثلها مثل الحنكليس. وينبع هذان النهران من البيرينيه بين ناربون وقطاع أفروديت المقدّس؛ وعلى الجانب الآخر من ناربون تجري الأنهار من

كيمين إلى البحر، وتجري هناك أنهار أتاكا، وأوبريس، وأراوريوس. وتقوم على الأول من هذه الأنهار مدينة بيتيرا، وهي مدينة آمنة، وعلى مقربة من ناربون؛ وتقوم على النهر الثاني مدينة أغاثا التي أسّسها الماساليون.

**7**- وليس على الساحل المذكور من النوادر واحدة فقط- «أحفورات السمك الأحمر الذقن»، بل هناك نادرة أخرى لا تقلّ غرابة عن هذا، وهي النادرة التي سأتحدّث عنها الآن. فبين ماساليا ومصبّ نهر رودان يمتدّ سهل دائريّ الشكل، يبعد عن البحر ما يقارب 100 مرحلة، وقطره يساوي هذا الرقم نفسه تقريباً. ويدعى هذا السهل بالسهل الحجري[21]، فهو مليء بحجارة يملأ واحدها قبضة الكفّ، وينمو تحت هذه الحجارة نبات برّي علفيّ يشكّل مراع خصبة للقطعان[22]. وثمّة في وسط السهل ماء، وينابيع مياهها مالحة، وملح. وتهبّ على هذا السهل وكل أراضي البلاد الواقعة فوقه، رياح شديدة، لكنّ الريح الشمالية السوداء، العنيفة والباردة، تهاجم هذا السهل بضراوة لا مثيل لها؛ ويروى أنها تحمل بعض الحجارة معها وتدحرج أخرى؛ كما تتقاذف عصفاتها الناس بما يحملون، وتنتزع منهم أسلحتهم وملابسهم. ويزعم أرسطو أن الهزّات الأرضية هي التي تقذف بهذه الحجارة إلى سطح الأرض، (وتدعى هذه الهزّات «هزّات براستية»[23])، وأن هذه تتدحرج وتتجمّع في الأماكن العميقة من البلاد. أمّا بوسيدونيوس فيرى أن هذا[24] كان بحيرة؛ فتصلّبت بينما الأمواج تذر ماءها، ثمّ تهشّمت الكتلة المتصلّبة إلى كثرة من الحجارة (التي تشبه الحجارة النهرية، والكتل الحجرية التي تتجمّع على شاطئ البحر)، وتبعاً لوحدة منشئها جاءت هذه الحجارة ملساء بالدرجة نفسها، ومتماثلة الحجم. ويسوق الكاتبان أسبابهما، وهي من غير شك أسباب مقنعة. لأنه غنيّ عن البيان القول، إن الحجارة التي تجمّعت لم يكن بإمكانها أن تتحوّل تلقائياً من سائل إلى جسم صلب، أو أن تتكسّر من الكتل الصخرية الكبيرة التي حدثت فيها تشقّقات. ولكنّ إيثخيليوس الذي درس هذه الظاهرة المعقّدة دراسة معلّلة، أو تلقى معلومات عنها من مصدر آخر، نقلها إلى ميدان الأسطورة. وعلى كلّ حال فإن بروميثيوس يقول عنده وهو يرشد هرقل إلى الطريق من القفقاس إلى مكان إقامة الهسبيريدس:

**عندما تصل إلى بلاد الليغيين البواسل،**
**لا تدخل في قتال هناك، مع أنك شجاع القلب.**
**فالمعركة ستكون قاسية. ومقدّر لك أن تفقد**
**درعك هناك. قد يخطر لك أن ترفع صخرة،**
**لكنّك لن تجد حتّى حجراً: الأرض كلّها تراب ناعم.**

**سوف يراك زيوس في محنة ويرثي لحالك،**

**فيرسل سحباً راعدة، ويتساقط البَرَدُ الحجري على الأرض.**

**فترفع الحجارة من الأرض وتشتت الليغيين.**

(*بروميثيوس طليقاً، مقطع* 199. *ناوك*)

ويعلّق بوسيدونيوس على هذا قائلاً: كأنه لم يكن من الأفضل لزيوس لو رمى حجارته على الليغوريين مباشرة وطمرهم، بدل أن يصوَّر هرقل في حالة عوز شديد إلى هذه الكثرة منها. ولكن فيما يخصّ هذا الكمّ الكبير [من الحجارة]، فإنه كان ضرورياً إذا كان الشّاعر قد أخذ بعين الحسبان فعلاً وجود أعداد كبيرة من المقاتلين، وعليه، فإن مؤلّف الأساطير يستحق في هذه الحالة أن يوثق به أكثر مما يوثق بمنتقده[25]. عدّاك عن هذا أن الشّاعر عندما قال «مقدّر لك»، فإنه يستثني بذلك بشكل متعنّت، أيّ تذمّر تجاه أيّ شيء كان، مما ورد في هذا المقطع؛ وثمّة في أبحاث «العناية الإلهية»، و«القدر» أمثلة كثيرة من هذا النوع مأخوذة من ميدان النشاط الإنساني، ومجال الظاهرات الطبيعية، والتي يمكن أن يقال بصددها: لقد كان من الأفضل بكثير لو حصل ذلك وليس هذا. فيمكننا مثلاً أن نقول: إنه كان من الأفضل، بالنسبة لمصر لو تساقطت الأمطار هناك، بدل أن تروي إثيوبيا تربتها؛ كما كان من الأفضل لباريس لو هلك في كارثة بحرية وهو في طريقه إلى إسبرطا، من أن يخطف يلينا، ومن ثمّ يعاقبه الذين أهانهم، متسبباً بذلك بتلك المآسي كلّها التي حلّت بالإغريق والبرابرة، وهي المآسي التي نسبها يوريبيدس لزيوس:

**... هكذا شاء، وهكذا قرّر الأب زيوس**

**أن يقدّر الشرّ للطروادين، والمرارة للهلينيين.**

(*مقطع* 1082، *ناوك*)

**8**- ويستهجن بوليبيوس المعطيات التي ساقها تيمييوس عن مصبّات روردان، فهو يزعم أن لروردان مصبّين وليس خمسة؛ أمّا أرتيميدور فقد أحصى ثلاثة مصبّات. وفيما بعد، عندما رأى ماريوس أن الرواسب الطينية قد أقذت المصبّ وباتت تعيق العبور، أمر بشقّ قناة جديدة ووجّه القسم الأكبر من النهر عبرها، ثمّ قدمها هدية للمساليين مكافأة لهم على بسالتهم في الحرب ضدّ الأمبرونيين والتويغينيين[26]؛ وقد جمع الماساليون ثروة كبيرة من وراء هذه الهدية، إذ فرضوا رسوماً على السفن المبحرة في روردان إلى الأعلى وإلى الأسفل. ومع ذلك لا يزال دخول مصبّ النهر غير سهل على السفن حتّى الآن بسبب اندفاع تياره وتراكم الترسبات الطينية، وقبل هذا كلّه بسبب

انخفاض موقع المكان، الأمر الذي يؤدّي في حالات سوء الطقس إلى انعدام رؤية الأرض حتّى من مسافة قريبة. ولذلك أقام الماساليون أبراجاً تمثل علامات فارقة، محاولين من خلال ذلك حيازة البلاد بشتّى الوسائل. وقد أقاموا هناك فعلاً معبداً لأرطميس الإفسسية بعد أن استولوا على قطعة أرض عند النهر حيث يشكّل مصبّه جزيرة. وثمّة إلى الأعلى من مصبّات رودان مستنقع بحريّ يدعونه «ستوماليمونا»[27]؛ والمستنقع غنيّ بالمحار والأسماك. وقد عدّ بعضهم هذا المستنقع واحداً من مصبّات رودان، خاصة منهم الذين أحصوا للنهر سبعة مصبّات، بيد أنهم اخطؤوا في زعمهم هذا وذاك، لأنّ هناك جبلاً يفصل بين المستنقع والنهر. إن هذا هو على وجه التقريب طابع الساحل وامتداده من البيرينيه حتّى ماساليا.

**9**- وعلى الساحل من ماساليا إلى نهر فار و[منطقة] الليغوريين المحلّيين، تقع المدن الماسالية: تافروينتيوس، وأولبيا، وأنتيبوليس، ونيقيا، وكذلك مرسى قيصر أوغسطس الذي يحمل اسم ساحة اليوليين. ويقع هذا المرسى المحطة بين أولبيا وأنتيبوليس على بعد حوالي 600 مرحلة من ماساليا. ويقع نهر فار بين أنتيبوليس ونيقيا، على بعد نحو 20 مرحلة عن هذه الأخيرة؛ و60 مرحلة عن الأولى، وعلى هذا النحو فإن نيقيا تشكّل حسب ترسيم الحدود[28] القائم الآن، جزءاً من إيطاليا، مع أنها للماساليين؛ لأنّ هؤلاء أسّسوا هذه المدن كحصون ضدّ البرابرة الذين يقطنون الأراضي الواقعة إلى الأعلى؛ وقد رمى الماساليون من وراء بناء هذه المدن إلى امتلاك البحر من غير منافسين، لأنّ البرابرة كانوا قد امتلكوا البرّ. فالأرض هنا جبلية وعرة المسالك؛ ومع أنه ثمّة لماساليا هنا شريط ساحلي سهلي صغير، إلاّ أنه مع التقدّم نحو الشرق فإن الجبال تدفع به نحو البحر، وبالكاد تبقي على الطريق نفسها سالكة. ويشغل الساليون الشطر الأول من هذا الشريط الساحلي؛ أمّا ما تبقّى منه فيشغله الليغوريون، الذين تتجاور منطقتهم مع إيطاليا؛ وسأتحدّث عن هؤلاء بعد هذا. أمّا الآن فينبغي عليّ أن أضيف الآتي: مع أن أنتيبوليس تقع في حدود ناربونيتيس، ونيقيا في حدود إيطاليا، إلاّ أنها مع ذلك تخضع للماساليين وتتبع المقاطعة[29]، بينما باتت أنتيبوليس من المدن الإيطاليوتية[30]، بعد أن انتزعت من الماساليين بقرار قضائي وتحرّرت بذلك من سيطرتهم.

**10**- وأمام هذا الشريط الساحلي الضيّق، ابتداء من ماساليا، تقع الجزر الستويخادية[31]: ثلاث منها كبيرة، واثنتان صغيرتان؛ ويزرع الماساليون هذه الجزر الخمس. وفي الأزمنة السابقة كان الماساليون يحتفظون على الجزر بحاميات لصدّ

غزوات قراصنة البحر، لأنّ الجزر كانت تتوفّر على كثير من المراسي. وتقع بعد الجزر الستويخادية، جزيرتا بلاناسيا وليرون اللتان توجد فيهما قرى. وفي جزيرة ليرون معبد بني على شرف البطل ليرون؛ وتقع هذه الجزيرة قبالة أنتيبوليس. وهناك إضافة إلى هذه الجزر، جزر صغيرة أخرى، يقع بعضها أمام ماساليا نفسها، ويقع بعضها الآخر أمام الجزء المتبقي من الساحل المذكور؛ ولكنّها لا تستحقّ الذكر. أمّا فيما يخصّ المراسي فثمّة واحد منها ذو أهمية، وهو المرسى الواقع عند محطّة السفن، بل هناك مرسى آخر مهم أيضاً، هو مرسى الماساليين؛ أمّا ما تبقّى منها فهي مراس متوسّطة الحجم؛ وبين هذه الأخيرة مرسى دعي باسم الليغوريين الأوكسيبيين. ذلكم هو ما كان ينبغي عليّ أن أقوله عن هذا الساحل.

**11**- أمّا البلاد الواقعة إلى الأعلى من الساحل، فإن حدودها الجغرافية مرسومة على وجه العموم بالجبال والأنهار المحيطة بها، خاصة نهر رودان، لا لأنّ هذا النهر هو النهر الأكبر وحسب، إنّما لأنه نهر صالح للملاحة إلى مسافة طويلة، فروافده التي تملأ مجراه كثيرة جدّاً. ومن الضروري أن نتحدّث عن هذه المناطق بالترتيب. فإذا بدأنا الجولة من ماساليا نحو البلاد الواقعة بين الألب ورودان، فإن الساليين يشغلون المدى الممتدّ حتّى نهر دروينسيا على امتداد 500 مرحلة؛ وإذا ما توجّهنا على متن عبّارة إلى مدينة كابالليون، فإن المنطقة التالية القريبة كلّها ملك للكافاريين وصولاً حتّى نقطة التقاء إيسار مع رودان؛ وهناك حيث تقريباً يتلامس جبل كيمين مع رودان، يبلغ امتداد الطريق من دروينسيا حتّى هذا المكان، 700 مرحلة. وفي داخل حدود بلادهم، يشغل الساليون سهولاً ومناطق جبلية تقع فوق السهول، بينما يقطن الفوكونتيون، والتريكوريون، والإيكونيون، والميدوليون الأراضي الواقعة إلى الأعلى من أراضي الكافاريين. وثمّة بين دروينسيا وإيسار أنهار أخرى تجري من الألب إلى رودان، ومنها تحديداً النهرين اللذين يلتفان حول فارا[32]، ومدن الكافاريين ثمّ يلتقيان في مجرى واحد ليصبّا في رودان؛ ويلتقي النهر الثالث، نهر سولغا مع نهر رودان، على مقربة من مدينة أوندالوم[33]، حيث ألحق غنيوس آينو باربوس الهزيمة بآلاف مؤلّفة من السلتيين في معركة عظيمة وقعت هناك. وتقع في هذا الفاصل مدن أفينيون، وأراوسيون، وآيريا، وعلى حدّ قول أرتيميدور أن «آيريا هي فعلاً آيريا لأنها تقع على ارتفاع كبير»[34]. ولكنّ البلاد كلّها بلاد سهلية وغنية بالمراعي، ما عدا المنطقة الممتدّة من آيريا حتّى دوريون، ففيها معابر جبلية ضيقة تكسوها الغابات. وفي المكان الذي يلتقي فيه نهر إيسار ورودان مع جبل كيمين، دمّر كوينتوس فابيوس مكسيموس إيميليانوس[35]،

200 ألف سلتي، مع أن عدد قواته كان أقلّ من 30 ألف مقاتل؛ وأقام في هذا المكان نصب النصر من حجر المرمر الأبيض، وبنى معبدين: أحدهما على شرف أريس، والثاني تكريماً لهرقل. والمسافة من إيسار إلى فيينا عاصمة الأللوبروغيين الواقعة على رودان، هي 320 مرحلة. وعلى مقربة من فيينا، إلى الأعلى قليلاً تقع لوغدونوم عند ملتقى أرار ورودان؛ والمسافة إلى لوغدونوم برّاً عبر منطقة الأللوبروغيين، حوالي 200 مرحلة، أمّا إذا أبحرت في النهر إلى الأعلى، فالمسافة أكبر بقليل. لقد كان الأللوبروغيون يشنّون من قبل حملات تشارك فيها آلاف مؤلّفة من المقاتلين، أمّا الآن فإنهم يزرعون سهول بلادهم ووديان الألب؛ ويعيشون كلّهم في قرى منفصلة، ما عدا سكّان فيينا الأرستقراطيين. وكانت فيينا من قبل قرية وحسب، لكنّها مع ذلك عدت عاصمة قبيلة الأللوبروغيين الذين جعلوا منها مدينة. وتقع فيينا على نهر رودان. وهذا النهر نهر جبّار جامح يجري من الألب، فتظهر تياراته لدى خروجه من بحيرة ليمينا من مسافة مراحل كثيرة. وإذ ينحدر النهر إلى سهول بلاد الأللوبروغيين والسيكوسيافيين، يلتقي مع نهر أرار ويشكّلان مجرى واحداً عند لوغدونوم، مدينة السيكوسيافيين. وبدوره أرار يجري من الألب أيضاً، ويفصل السيكوانيين عن الإيدويي واللينغونيين؛ ثمّ يجمّ مياه دوبيوس، وهو نهر صالح للملاحة ويجري من تلك الجبال نفسها، فيتغلّب عليه (باسمه)، وعلى الرغم من أنه تشكّل من اندغام نهرين، إلا أنه يصبّ في رودان، مثله مثل أرار. وبدوره رودان يتفوّق على ثلاثتهم ويجري إلى فيينا. وعلى هذا النحو فإن الحاصل هو أن هذه الأنهار الثلاثة تجري شمالاً، ثمّ غرباً؛ وبعد أن تندغم في مجرى واحد، فإن هذا النهر ينعطف مرّة أخرى باتجاه الجنوب نحو مصبّه، مع أنه يستقبل قبل ذلك روافده الأخرى، ويتابع من هناك ما تبقى من طريقه إلى البحر. وهذا هو على وجه التقريب، طابع البلاد الواقعة بين الألب ورودان.

**12-** ويشغل الشطر الأكبر من البلاد الواقعة على الجانب الآخر من النهر، أولئك الفولكيون الذين يدعونهم الأريكومسكيين. ويقال إن ناربون محطة سفن لهم وحدهم فقط، مع أنه كان من الأصح أن يزاد على هذا، أنها محطة «لباقي سلتيا» أيضاً، لأنّ هذه المدينة تتفوّق على المدن الأخرى بعدد السكّان الذين يفيدون من هذا المركز التجاري. ومع أن الفولكيين يقطنون على مقربة من نهر رودان، وأن السالبين والكافاريين يعيشون على موازاتهم على الضّفّة المقابلة، إلاّ أن اسم الكافار هو الغالب، فقد باتوا يدعون به كلّ الذين يعيشون في هذا الشطر من البلاد، مع أنهم لم يعودوا برابرة الآن، بل تحوّل القسم الأكبر منهم إلى نمط العيش الروماني، واعتمدوا

اللغة الرومانية لغة التخاطب اليومي، أمّا الآخرون منهم فقد اقتبسوا عن الرومان إضافة إلى ذلك، بناء الدولة. وتعيش إلى جوار الأريكومسكيين، حتّى البيرينيه، قبائل أخرى مغمورة ولا أهمية لها. وعاصمة الأريكومسكيين هي نيماوس، التي وإن كان عدد الغرباء والتجار فيها أقلّ مما في ناربون، إلاّ أنها تتفوّق على هذه الأخيرة بعدد المواطنين، فنيماوس تبسط سلطتها على 24 قرية تسكنها أعداد كبيرة من السكّان الذين يتميّزون بالبسالة وشدّة البأس، وينتمون إلى قبيلة الأريكومسكيين نفسها، ويؤدّون الإتاوة لنيماوس؛ وتتمتّع هذه المدينة بما يدعى «الحقوق اللاتينية»[36]، ولذلك فإن الشخصيات التي كانت تشغل منصب إيديلا وكويستور في نيماوس، كانوا مواطنين رومان؛ وعليه لم تكن هذه القبيلة تخضع حتّى لسلطة البريتورات الذين كانت ترسلهم روما إلى هناك[37]. والمدينة تقع على الطريق من إيبيريا إلى إيطاليا؛ والوصول إليها صيفاً يسير، أمّا في الشتاء والربيع فيترك فيضان الأنهار أكواماً من القاذورات في المكان. وعليه فإنهم ينتقلون عبر بعض الأنهار بالعبّارات، ويعبرون بعضها الآخر فوق جسور خشبية أو حجرية. وتنجم هذه الصعوبات عن التيارات الجبلية المرتبطة بالفيضانات، فهذه التيارات تهوي من أعالي الألب بعد ذوبان الثلوج، ويستمرّ اندفاعها أحياناً حتّى حلول فصل الصيف. ويمتدّ جزء من الطريق المذكورة، وهو الجزء الأقصر الذي يقود إلى الألب مباشرة، كما ذكرت[38]، يمتدّ عبر بلاد الفوكونتيين، أمّا الجزء الآخر فيمتدّ عبر الساحل الماسالي والليغوري، وهو الأطول، مع أن فيه معابر جبلية إلى إيطاليا ملائمة أكثر، لأنّ الجبال منخفضة أكثر. وتبعد نيماوس عن رودان، ابتداء من النقطة المقابلة لبلدة تاروسكون على الضفّة الأخرى للنهر، حوالي 100 مرحلة، أمّا عن ناربون، فإنها تبعد 720 مرحلة. عدّاك عن هذا أن المنطقة المجاورة لجبل كيمين، والتي تشمل الجانب الجنوبي من الجبل وصولاً حتّى قممه، يعيش فيها الفولكيون الذين يحملون اسم التكتوساغيين، ومعهم بعض الآخرين. وسوف أتحدّث عن الآخرين فيما بعد.

**13**- تعيش القبيلة المسماة قبيلة التكتوساغيين، في جوار البيرينيه، مع أن المنطقة التي يشغلها هؤلاء تلامس أيضاً شطراً صغيراً من الجهة الشمالية لجبل كيمين؛ وبلادهم غنيّة بالذهب. ويبدو أن أعدادهم كانت في زمن ما كثيرة، وأنهم كانوا أقوياء إلى درجة أنهم بانتفاضة واحدة طردوا جموعاً غفيرة من أبناء جلدتهم إلى خارج وطنهم الأم؛ وقد انضمّ إلى هؤلاء المطرودين أناس من قبائل أخرى. وكانت تنتمي إليهم أيضاً القبائل التي استولت على جزء من فريجيا المجاورة لقبدوقيا وبافلاغونيا[39]. وما يؤكّد على ذلك، هو وجود قبيلة في أيامنا هذه تدعى قبيلة التكتوساغيين؛ فثمّة هناك

ثلاث قبائل؛ إحداها تعيش حول مدينة أنكيرا، وتدعى قبيلة التكتوساغيين، بينما القبيلتان الأخريان هما التروكميون والتوليستوبوغيون. وفيما يخصّ هؤلاء الأخيرين، فإنه على الرغم من أن صلة القرابة التي تربط بينهم وبين التكتوساغيين، تدل على أنهم هاجروا من سلتيا، إلاّ أنني لا أستطيع أن أقول، من أي منطقة هاجروا على وجه التحديد، لأنني لم أسمع بأيّ تروكميين أوتوليستوبوغيين يعيشون الآن وراء الألب، في الألب، أو على هذا الجانب من الألب. فربّما يكون هؤلاء قد اندثروا نتيجة كثرة هجراتهم، وهو ما حصل لكثير من القبائل الأخرى. فبحسب قول بعضهم مثلاً، أن برين[40] الآخر الذي هاجم دلفي، كان برافسياً، ولكنّني لا أستطيع أن أقول في أيّ بلاد عاش البرافسيون من قبل. ثمّ يروون أيضاً أن التكتوساغيين شاركوا في الحملة على دلفي، بل يروى أيضاً أن الكنوز التي عثر عليها عندهم القائد الروماني سيبيون، في مدينة تولوسا، كانت جزءاً من الثروات التي غنموها في دلفي، ولكنّ السكّان المحلّيين زادوا عليها من نفائسهم الخاصة ما كانوا يقدّمونه من تقدمات لاسترضاء إلههم؛ أمّا سيبيون الذي استولى على هذه الكنوز وضمها لنفسه، فقد أنهى حياته بسبب ذلك بائساً ضنكاً، لأنّ وطنه نبذه ونفاه بصفته كافراً[41]. ولما توفى ترك سيبيون وراءه ابنتين قال تيموجين إنهما عاشتا حياة داعرة وماتتا ميتة مشينة. بيد أن رواية بوسيدونيوس هي الرواية الأقرب إلى الواقع، فهو يقول: إن الكنوز التي عثر عليها في تولوسّا كانت تساوي ما يقارب 15.000 تالانت. جزء منها كان مخبّأ في حجر سرّيّة، والجزء الآخر في برك مقدّسة. وكان هذا يتألّف من معدن غير مسكوك، أي من ذهب وفضّة غير مصنّعين. ولكنّ معبد دلفي لم يكن يمتلك حينئذٍ مثل تلك الكنوز، فالثوكيون نهبوه في أثناء الحرب المقدّسة[42]؛ وإذا كان قد بقي شيء ما فيه، فقد وزّع على كثير من الناس. ومن غير المعقول أن يكون التكتوساغيون قد عادوا إلى ديارهم بسلام، لأنهم بعد خروجهم من دلفي ولّوا الأدبار يجرّون وراءهم ذيول العار، وما لبثوا بعد ذلك أن تفرّقوا في اتجاهات مختلفة إثر النزاعات التي وقعت بينهم. ولكن، بحسب بوسيدونيوس وكثير من الكتّاب الآخرين، أنه نظراً لغنى البلاد بالذهب، ونقاء سريرة شعبها، وعيشته المتواضعة، فقد كانت الكنوز مخزونة في أماكن كثيرة من سلتيا؛ وكانت البرك المقدّسة هي أكثر الأماكن أمناً لحفظ الكنوز، إذ كانوا يسقطون قطع الفضّة وحتّى الذهب في مياهها. وعلى وجه العموم كان الرومان، بعد أن استولوا على هذه البلاد، يبيعون هذه البرك لصالح خزينة الدولة، وعثر كثير ممن اشتراها على قطع من الفضّة المشغولة. وها هي تولوسّا تزهو

بدورها بوجود مثل هذا المكان المقدّس فيها، وكان سكّان الأطراف يبجّلونه أعظم تبجيل، ولذلك تجمّعت فيه كنوز عظيمة كان كثيرون يحملونها تقدمات لإلهم، ولم يكن أحد ليجرؤ على أن يتطاول عليها.

**14**- تقع تولوسّا في أضيق أجزاء البرزخ الذي يفصل المحيط عن البحر عند ناربون؛ وبحسب بوسيدونيوس، أن قطر هذا البرزخ أقل من 3000 مرحلة. ومن المفيد أن نؤكد مرّة أخرى على السمة التي تميّز هذه البلاد، وهو ما كنت قد أشرت إليه من قبل[43]: التناسب بين اليابسة والأنهار من جهة، والبحر الخارجي[44] والداخلي من جهة أخرى. ونحن إذا ما وازنا هذه القرينة لوجدنا أنها ليست آخر أسباب المحاسن التي تتميّز بها هذه البلاد، وأنا أقصد هنا إلى واقع أن تبادل المواد الحيويّة يجري هنا بسهولة ويسر، الأمر الذي ينعكس منفعة مشتركة لجميعهم، خاصة في وقتنا الراهن حيث وضعت الحروب أوزارها ولم تعد تقلق الناس الذين التفتوا إلى حراثة الأرض بدأب وكدّ، وشرعوا يبنون حياتهم المدنية. ولذلك فإن مثل هذه الأحوال تدلّ، كما يمكن أن نتصوّر، على عمل عناية إلهية، لأنّ موقع هذه البلدان لم يأت مصادفة، إنّما يبدو كأنه متوافق مع بعض الخطط العقلانية. ففي رودان يمكن أن تبحر حتّى سفن الشحن الكبيرة مسافة طويلة نحو الأعلى، لتبلغ كثيراً من أنحاء البلاد، لأنّ روافد النهر بدورها صالحة للملاحة وقادرة على استقبال أعداد كبيرة من الشحنات. ومن ثمّ يستقبل السفن أرار ودوبيوس الذي يصبّ فيه؛ وتتابع السفن بعد ذلك طريقها جرّاً إلى نهر سيكوانا، ومن هناك تنحدر مع المجرى إلى المحيط، ثمّ إلى بلاد الليكسوبين والسلتيين[45]؛ ومن المنطقة التي يقطنها هؤلاء حتّى بريطانيا مسافة أقلّ من يوم واحد. ولكن بما أن لرودان تيار سريع، الأمر الذي يجعل الإبحار فيه إلى الأعلى صعباً، لذلك كان من الأفضل نقل بعض الشحنات من هنا[46] جرّاً في عربات، أي كلّ البضائع التي تذهب إلى بلاد الأرفيرنيين ونهر الليغير، مع أن رودان يمرّ جزئياً على مقربة من هذه البلدان؛ ولكنّ استواء الطريق البرّيّة وقصرها- حوالي 800 مرحلة[47]- يجعلانهم يعزفون عن الإبحار في النهر[48] إلى الأعلى: نقل الشحنات بالعربات أسهل، ومن هنا يتلقاها الليغير من غير عوائق؛ فهو ينحدر من جبل كيمين إلى المحيط. ومن ناربون تبحر الشحنات مسافة قصيرة في نهر أتاك، ثمّ تنقل بالعربات مسافة أطول حتّى نهر غارومنا. ويبلغ امتداد هذا المقطع من الطريق 800 أو 700 مرحلة. ويجري غارومنا بدوره إلى المحيط. وهذا ما كان يجب علي قوله عن سكّان منطقة ناربونيتيس الذين دعاهم الناس في الأزمنة الماضية بالسلتيين إمّا بسبب المجد الذي حققه هؤلاء أو لأنّ الماساليين والجيران الإغريق الآخرين ساعدوا على ذلك بسبب قربهم منهم.

# الفصل الثاني

**1-** وينبغي أن نتحدّث بعد ذلك عن الأكويتانيين والقبائل التي تدخل في حدود بلادهم:[1] عن القبائل الغلاطية الأربع عشرة التي تقطن بين غارومنا والليغير؛ بل ثمّة منها من يشغل شطراً من منطقة رودان وسهول ناربونيتيس. لأنّ الأكويتانيين على وجه العموم، يتميّزون عن قبيلة الغلاطيين ببنيتهم الفيزيائية، ولغتهم، وبكونهم أكثر شبهاً بالإيبيريين[2]. ويشكّل نهر غارومنا حدود بلادهم؛ فهم يعيشون بينه وبين البيرينيه. ويبلغ عدد القبائل الأكويتانية 20 قبيلة، لكنّها كلّها قبائل صغيرة ومغمورة، ويعيش أكثرها على ساحل المحيط، بينما انتشرت القبائل الأخرى في المناطق الداخلية من البلاد وصولاً حتّى قمّة جبل كيمين ومنطقة التكتوساغيين. وبما أن هذا الشطر من البلاد كان عبارة عن جزء[3] صغير جداً منها، فقد ألحق الرومان به الأراضي الممتدّة بين غارومنا والليغير. ويجري هذان النهران على موازاة البيرينيه تقريباً، ويشكّلان مع هذه الأخيرة متوازييّ أضلاع، لأنهما محدودان من الجهات الأخرى بالمحيط وجبال كيمين. والملاحة في النهرين ممكنة مسافة 2000 مرحلة تقريباً. وإذا يتلقى مياه ثلاثة أنهار، يسكب غارومنا مياهه في المنطقة الواقعة بين البيتوريغيين (الذين يدعونهم فيفيسكيين) والسانتونيين (وهؤلاء وأولئك من القبائل الغلاطية)؛ وقبيلة البيتوريغيين هؤلاء وحدها القبيلة الغريبة التي تعيش بين الأكويتانيين؛ وهي لا تؤدّي لهم إتاوات، مع أنها تملك ميناء[4]، هو ميناء بورديغار الواقع على واحد من الأخوار الذي تشكّله مصبّات النهر. أمّا الليغير فإنه يسكب مياهه بين منطقتيّ البيكتونيين والناميتيين. وقبل ذلك كان ثمّة على هذا النهر ميناء يدعى كوربيلون؛ وقد قال عنه بوليبيوس مستنداً إلى حكايات بيفوس الخيالية: «لم يستطع أحد من الماسّاليين الذين تحدّثوا مع سيبيون[5]، أن يخبره بشيء يستحق الذكر، عندما سألهم عن بريطانيا، ولا أحد من سكّان ناربون أوكوربيلون (وكانت هاتان أفضل مدينتين في هذه البلاد). ولكنّ بيفوس تجرّأ وقال كثيراً من الكذب بخصوص بريطانيا». أمّا مدينة السانتونيين، فهي ميديولانوس. والشطر الأكبر من ساحل المحيط الذي يشغله الأكويتانيون، رمليّ تربته فقيرة، تزوّد السكّان بالدخن، لكنّها أقل خصوبة بالنسبة للمحاصيل الأخرى. ويوجد هنا أيضاً خليج يؤلف مع الخليج الغلاطي الواقع على ساحل ناربونيتيس، برزخاً يحمل اسم الخليج نفسه، أي برزخ غلاطيا. وهذا الخليج ملك للتاربيليين الذين تحتوي بلادهم على أغنى الرواسب الذهبية؛ حتّى في الحفر غير العميقة يعثرون على فلزات ذهبية بحجم قبضة اليد، ولا تحتاج في بعض الأحيان إلا لعملية

تنظيف بسيطة، لا يبقى بعدها سوى الرمل الذهبي وقطع الخامة. ولا تحتاج هذه الأخيرة كثيراً من المعالجة. وأفضل تربة في البلاد، هي تربة الشطر الداخلي والمنطقة الجبلية؛ وتقع على مقربة من البيرينيه منطقة «الكونفينيين»[6]، أي حشد من الناس. وتقع هنا مدينة لوغدونوم وينابيع الأونيسيين الدافئة، وهي ينابيع رائعة مياهها أعذب مياه للشرب. وتتميّز منطقة الأفسكيين بتربة جيّدة.

**2-** والقبائل التي تعيش بين غارومنا والليغير وتنتمي إلى الأكويتانيين هي: الإيلوي (تبدأ منطقتهم من رودان)، وبعدهم الويلاويون الذين أُلحقوا بأراضي الأفيرنيين، لكنّهم يتمتّعون الآن بإدارة ذاتية[7]؛ ثمّ يليهم الأرفيرنيّون، والليموفكيّون والبيرتوكوريّون؛ وعلى مقربة من هؤلاء يقطن النيتيوبريغيون، والكادوركيّون والبيتوريغيّون الذين يدعون «أكعاباً»؛ وعلى مقربة من المحيط يقطن السانتونيّون والبيكتونيّون؛ ويعيش هؤلاء الأوائل، كما أسلفت القول، على طول مجرى نهر غارومنا، ويعيش البيكتونيون على طول مجرى الليغير؛ أمّا الروتينيّون والغاباليّون فإنهم يقتربون أكثر من ناربونيتيس. وتوجد في منطقة البيتروكوريين ورش ممتازة لتصنيع الحديد؛ وعند الروتينيين مناجم لاستخراج الفضّة، ومثلها عند الغاباليين أيضاً. وقد منح الرومان «الحقوق اللاتينية»[8] لبعض الأكويتانيين، كالآوسكيين والكونفينيين مثلاً.

**3-** ويعيش الأرفيرنيّون على نهر الليغير؛ مدينتهم الرئيسة هي نيموس، تقع على نهر الليغير. وبعد أن يجري هذا النهر على مقربة من كيناب، وهو ميناء الكارنوتيين (الواقع في منتصف الطريق تقريباً)، المسكون معاً[9]، يسكب مياهه في المحيط. وفي سياق البرهان على جبروتهم الذي كان، يشير الأرفيرنيون إلى أنهم غالباً ما قاتلوا الرومان بقوات يبلغ تعدادها 200.000 مقاتل، بل كان يصل هذا العدد إلى الضعف أحياناً؛ وهذا ما حصل على سبيل المثال، عندما قاتلوا قيصر الإلهي حتّى النهاية، تحت قيادة وريسينغيتوريغ؛ وكانوا قد جنّدوا قبل ذلك 200.000 مقاتل وقاتلوا مكسيم إيميليانوس، وبمثل هذا العدد من المقاتلين قاتلوا دوميسيان آينوباربوس أيضاً. وقد دارت رحى المعارك ضدّ قيصر عند غيرغوفيا، مدينة الأرفيرنيين الواقعة على جبل عال، حيث ولد وريسينغيتوريغ، وعند أليسيا، مدينة الماندوبيين، وهم قبيلة لها حدود مشتركة مع الأرفيرنيين. وهذه المدينة تقع أيضاً على هضبة عالية، مع أنها محاطة بالجبال وبنهرين اثنين. وهنا وقع القائد أسيراً وانتهت الحرب. لقد دارت المعارك ضدّ مكسيموس إيمليانوس عند ملتقى نهريّ إيسار ورودان، حيث يدنو جبل كيمين من رودان؛ ودارت ضدّ دوميسيان آينوباربوس، على مجرى رودان إلى الأسفل عند ملتقى سولغا ورودان.

وقد بسط الأرفيرنيون سيطرتهم حتّى ناربون وحدود ماساليتيس؛ وحكموا على القبائل حتّى البيرينيه، والمحيط، والرين. ويروى أن لويريوس، والدبيتويتوس الذي قاتل مكسيموس ودوميسيان، كان رجلاً ثرياً جدّاً وباذخاً جدّاً، فمرّة أراد أن يتباهى بثرائه أمام أصدقائه، فجاء إلى الحقل في مركبة وهو ينثر النقود الذهبية والفضية ذات اليمين وذات الشمال، والتابعون يلتقطونها[10].

## الفصل الثالث

**1-** وتمتدّ البلاد التي تلي الجزء الأكويتاني وناربونيتيس، حتّى الرين كلّه ابتداء من نهر الليغير ورودان، في النقطة التي يبلغ فيها مجرى رودان نحو الأسفل لوغدونوم، ابتداء من منابعه. وتخضع الأجزاء العليا من هذه البلاد، عند منابع الرين ورودان، والتي تمتدّ حتّى وسط السهول تقريباً، تخضع للوغدونوم؛ أمّا باقي البلاد، بما فيها المنطقة الممتدّة على طول ساحل المحيط، فهي خاضعة للجزء الآخر، أي للجزء الذي يستوطنه البلجيكيون أنفسهم[1]. وها أنا أعطي وصفاً عاماً لأجزاء معينة.

**2-** إن لوغدونوم نفسها، التي بنيت عند سفح هضبة في النقطة التي يلتقي فيها نهر أرار مع رودان، يملكها الرومان. والكثافة السكّانية في هذه المدينة هي الأعلى بين المدن الأخرى كلّها، ما عدا مدينة ناربون؛ فلوغدونوم ليست مركزاً تجارياً لسكّان الأطراف وحسب، بل ويسكّ الحكّام الرومان فيها عملة ذهبية وفضية. زد إلى هذا أنهم أقاموا أمام المدينة، عند نقطة التقاء النهرين، معبداً لقيصر أغسطس شيّده الغلاطيون كلّهم. وثمّة في المعبد هيكل بديع فيه نقش يحتوي على أسماء القبائل (60 قبيلة) والتصاوير التي قدّمتها، رسم واحد من كلّ قبيلة؛ كما يقوم هنا أيضاً تمثال كبير لأغسطس[2]. ولوغدونوم هي المدينة الرئيسة لقبيلة السيغوسيافيين الذين يقطنون بين رودان ودوبيوس. أمّا القبائل التي تلي السيغوسيافيين مباشرة، والتي تمتدّ مناطقها حتّى الرين، فإن جزءاً منها محدود بدوبيوس، والجزء الآخر بأرار. وكما سبق لي أن قلت[3]، فإن هذه الأنهار تجري من الألب، ثمّ تتّحد في مجرى واحد وتصبّ في رودان؛ وهناك أيضاً نهر آخر، هو نهر سيكوانا، ومنابعه في الألب كذلك. ويجري هذا النهر إلى المحيط بموازاة الرين، عبر منطقة قبيلة تحمل اسم النهر نفسه؛ وتجاور الأجزاء الشرقية من هذه المنطقة نهر الرين، بينما تجاور المناطق المقابلة نهر أرار، وعبر هذا النهر ينقلون من هنا إلى روما أفضل أفخاذ الخنازير المملّحة. وتعيش بين دوبيوس وأرار قبيلة الإيدويي؛ ولهؤلاء على نهر أرار مدينة هي مدينة كابيلينيوم، وقلعة هي قلعة

بيبراتكـي. ولم يـدع الإيـدويي أقـارب الرومـان وحسـب[4]، بـل أوّل قبيلـة مـن بـين قبائـل البـلاد كلّها، وقعت معهم معاهـدة صداقة واتحـاد. وعلـى الجانـب الآخـر مـن أرار يعيش السيكوانيون، الأعداء القدامى للرومـان والإيـدويي. ولهذا كـانوا غالبـاً مـا يشـاركون الجرمـان في غـزوهم لإيطاليـا، مـبرهنين بـذلك أنهـم يمثلـون قـوّة يحسـب لهـا حسـاب؛ لأنّ الجرمان كانوا يتحوّلون إلى قوّة شديدة الخطـورة عنـدما كـان هـؤلاء يتحـالفون معهـم، وقوة ضعيفة عندما ينفضّـون عنهم. أمّـا فيمـا يتعلّـق بالإيـدويي فـإن علاقـة السـيكوانيين بهم كانت علاقة عدائية للأسباب عينها، زد إليها النزاع بين الطـرفين علـى النهـر الـذي يفصل بينهمـا، فكـل مـن القبيلـتين عـدت أرار ملكـاً لهـا بالتـالي لهـا وحـدها حـق جبايـة رسوم النقل عبره. بيد أن كلّ شيء الآن تحت سيطرة الرومان.

**3-** ومن أولى القبائل التي استوطنت بلاد الـراين، قبائـل الجيلفيتـيين، الـذين تقـع في منطقتهم في جبل آدولا، منابع الرين. وجبل آدولا جزء من جبال الألب التي يجري منها بالاتجـاه المعـاكس (أي إلى سـلتيا الواقعـة في الجهـة الأخـرى)، نهـر آدّوا لـيملأ بحـيرة لاريوس التي تأسّست على مقربة منها مدينة كوم. ومن ثمّ، بعـد أن ينبثـق مـن الـبحيرة، يضمّ آدّوا مياهه إلى مياه باد، وهذا ما سأتحدّث عنـه فيمـا بعـد. والـرين بـدوره ينسـكب في مسـتنقعات كـبيرة وبحـيرة كـبيرة تجاورهـا منـاطق الـريتيين والوينـديليكيين. وهـذه القبيلـة تعيش في الألـب وراء الألـب. وبحسـب أسـينيوس[5] أن طـول النهـر 6000 مرحلـة، لكنّ الأمر ليس كذلك. فالحقيقة هي أن طول هذا النهر على خطّ مستقيم يمكـن أن يتجاوز نصف هـذا الـرقم بقليـل، وإذا مـا أخـذنا التواءاتـه بالحسـبان، فيكفـي أن نزيـده 1000 مرحلة علـى ذلـك. وجريـان هـذا النهـر سـريع جـدّاً، لـذلك يصـعب أن تقـام الجسـور عبره، لكنّه بعد اندفاعه من أعالي الجبال، يعود ليجـري بانحـدار خفيـف عـبر السـهول. وكيف لنهر أن يكون جامحاً وسريعاً إذا ما أضفنا إلى ضعف انحدار [مجـراه]، كـثيراً مـن الالتـواءات الطويلـة؟ ثـمّ يواصـل أسـينيوس حديثـه فيقـول، إن للـرين مصـبّين فقـط، داحضـاً بـذلك أولئـك الـذين يتحـدّثون عـن عـدد أكـبر. ومـن الواضـح أن التـواءات الـرين وسيكوينا تحيط بجزء ما من البلاد، لكنّه ليس جزءاً كبيراً أبداً. ويجري النهـران مـن الأجزاء الجنوبية للبلاد نحو الشمال؛ وتقع بريطانيا قريبة من الرين إلى درجة تمكّـن مـن رؤية كانتيوس من مصبّاته؛ وكانتيوس هي الـرأس الشـرقية للجزيـرة. وليسـت بريطانيـا بعد سيكوانا إلا بقليل. وهنا[6] بنى قيصر الإلهي ترسـانة إصـلاح سـفنه عنـدما اتّجـه إلى بريطانيا. وبالنسبة للـذين يحصـلون علـى البضـائع مـن أرار، فـإن طـريقهم عـبر سـيكوانا أطول بقليل مما هـي عـبر الليغير وغارومنـا؛ ولكـنّ المسـافة مـن لوغـدونوم إلى سـيكوانا

تبلغ 1000 مرحلة، ومن مصبّات رودان إلى لوغدونوم أقلّ من هذه المسافة بمرّتين، كما يرون. ويقولون أيضاً، إن الجيلفيتيين وعلى الرغم من غناهم بالذهب، إلاّ أنهم مع ذلك اتّجهوا إلى أعمال السلب والنهب، إذ رأوا ثراء الكيموريين؛ وقد أدت غزواتهم إلى فناء قبيلتين من قبائلهم الثلاث. ولكنّ الحرب ضدّ قيصر الإلهي أظهرت كثرة أعداد السكّان الناجين؛ فقد هلك في هذه الحرب حوالي 400.000 نسمة، وإن كان قيصر قد منح فرصة لنجاة ما تبقى (حوالي 8000)، كي لا يبقي لجيرانهم الجرمان أرضاً خالية من السكّان غنيمة حربية.

**4**- وبعد الجيلفيتيين يعيش على ضفتيّ الرين، السيكوانيون والميديوماتريكيّون، الذين استقرّت في منطقتهم قبيلة التريبوكخيين الجرمانية التي عبرت النهر تاركة موطنها الأول. ويقع في أراضي السيكوانيين جبل يورا الذي يفصل بين الجيلفيتيين والسيكوانيين. وخلف الجيلفيتيين والسيكوانيين إلى ناحية الغرب، يعيش الإيدويي واللينغونيون، ويعيش خلف الميديوماتريكيين، الليفكيون وفريق من اللينغونيين. ولكنّ هذه القبائل بين الليغير ونهر سيكوانا، على الجانب الآخر من رودان وأرار، تعيش إلى الشمال على مقربة من الألّلوبروغيين وسكّان أطراف لوغدونوم؛ وأكثر هذه القبائل أهمية، قبيلتا الأرفيريين والكارنوتيين؛ وعبر أراضي هاتين القبيلتين يجري الليغير إلى المحيط. ويبلغ امتداد المعبر من أنهار سلتيا إلى بريطانيا 320 مرحلة؛ لأنك إذا أبحرت وقت الجزر عند هبوط الظلام، فسوف ترسو على شاطئ الجزيرة في اليوم التالي حوالي الساعة الثامنة صباحاً. وخلف الميديوماتريكيين والتريبوكخيين على طول الرين، يعيش التريفيريون، وقد بنى الرومان الذين يخوضون الحرب الجرمانية[7]، بنوا في منطقتهم الآن جسراً. وعلى الجانب الآخر من الرين، قبالة هذه البلاد، عاش في زمن ما الأوروبيون، الذين نقلهم أغريبا بموافقتهم، إلى منطقة على هذه الضفّة من الرين. ويجاور التريفيريين النيرفيون، وهؤلاء بدورهم قبيلة جرمانية. وآخر هذه القبائل قبيلة الميناپيين التي تعيش على ضفّتيّ النهر عند مصبّه في المستنقعات والغابات، غير العالية، لكنّها كثيفة وشائكة. ويعيش قبالة الميناپيين السوغامبريون، وهم قبيلة جرمانية. ووراء هذه المنطقة النهرية كلّها يعيش الجرمان الذين يدعون بالسويفيين؛ ويتفوّق هؤلاء على الآخرين كلّهم عدداً وقوّة. وقد وجدت القبائل التي طردها السويفيون ملجأ لها الآن على هذا الجانب من الرين. وتُظهر القبائل الجرمانية الأخرى جبروتها في شتّى الميادين، وهي لا تكفّ عن إشعال فتيل الحرب، مع أن الرومان كانوا دائماً يخمدون [الانتفاضات] السابقة.

**5**- وإلى الغـرب مـن التريفيريـين والنيرفـيين يقطـن السـينونيّون والريميّـون، يليهم الأتيباتيّون والإيبورونيّون؛ وجيران المينابيين على البحر، هم المورينيّون، والبيلوفاكيّون، والأمبيانيّون، والسويسيونيّون، والكاليتيّون وصولاً إلى مصبّ نهر سيكوانا. ومنطقة المورينيين، والأتريباتيين، والإيبورونيين تشبه منطقة المينابيين، ويؤكّد المؤرّخون أن جزءاً مهماً منها، مع أنه ليس جزءاً كبيراً، إذ يمتدّ على 4000 مرحلة، مغطى بغابات كثيفة شجرها ليس باسقاً؛ وتدعى هذه الغابات غابات الأردوينا. وفي أثناء العدوان على البلاد كان السكّان يجدلون أغصان شجيرات الصفصاف الشوكية، ويقطعون بها طريق العدوّ[8]. كما كانوا يدقون الأوتاد في أماكن معيّنة ويختبئون مع أسرهم في الأدغال، فقد كانت عندهم جزر من اليابسة بين المستنقعات. وعلى هذا النحو كانت عندهم ملاجئ آمنة في أوقات المطر، لكنّهم كانوا صيداً سهلاً في أوقات الجفاف. وفي وقتنا الراهن تخضع هذه القبائل كلّها، التي تشغل هذا الجانب من الرين وتعيش بسلام، تخضع لسلطة الرومان. ويعيش الباريسيون حول نهر سيكوانا؛ ولهم في النهر جزيرة وعليه مدينة تدعى لوكوتوكيا؛ كما يعيش على نهر سيكوانا أيضاً، الميلديّون والليكسوفيّون، وينتشر هؤلاء الأخيرون عند شواطئ المحيط. وأهم قبائل هذه المنطقة كلّها، قبيلة الريميين؛ ومدينتهم الرئيسة هي دوريكورتوا، التي يقطن فيها العدد الأهم من السكّان،وهي مقرّ إقامة الولاة الرومان.

## الفصل الرابع

**1**- ثمّ يلي القبائل المذكورة ما تبقى من قبائل البلجيكيين التي تقطن على شواطئ المحيط؛ ومنها، أولاً، الفينيت الذين حاربوا قيصر في معركة بحرية؛ فقد حاولوا منعه من الرسو في بريطانيا باستيلائهم على ميناء في الجزيرة. لكنّ قيصر لم يجد أيّ صعوبة في إلحاق الهزيمة بهم في البحر، من غير أن يستخدم أدوات الصدم (لأن أخشاب سفنهم كانت سميكة جدّاً)[1]؛ فعندما دفعت بهم الرياح نحوه، مزّق الرومان أشرعة سفنهم برماح رؤوسها معقوفة، لأنّ أشرعة الفينيت كانت مصنوعة من الجلد ومشدودة على سلاسل بدل الحبال، لكي تقاوم قوة الرياح. وإذ أخذ الفينيت حالات الجزر بعين الحسبان، بنوا سفنهم من خشب البلوط المتوفّر عندهم بكثرة، وجعلوا قيعانها عريضة، ومؤخراتها وأنوفها عالية؛ وكانوا يتركون شقوقاً بين الأخشاب، لكنّهم كانوا يغطونها بطبقة من الطحالب البحرية لكي لا يجف الخشب بسبب قلّة الرطوبة عندما يخرجون السفن من المياه إلى اليابسة، ومن المعروف أن الطحالب البحرية

أكثر رطوبة بطبيعتها، وأن البلوط جاف ولا يُطلى بالقار. وأنا أظنّ أن هؤلاء الفينيت أسّسوا مستعمرة على البحر الأدرياتيكي. فالسلت الآخرون الذين يعيشون في إيطاليا كلّهم تقريباً، نزحوا من منطقة ما وراء الألب، أسوة بالبويين والسينونيين. لكنّهم بسبب تسميتهم الواحدة، عدّوهم بافلاغونيين[2]. ومع ذلك فإنني لا أصرّ على زعمي، لأنّ الترجيح وحده كاف في مثل هذه المسائل. وبعد الفينيت يأتي الأوسيسميون الذين يدعوهم بيفوس أوستيميين. ويعيش هؤلاء على رأس بحرية توغل بعيداً في المحيط، ولكن ليس بعيداً إلى الحدّ الذي يزعمه بيفوس ومن صدّق ما قاله. وهناك من القبائل التي تعيش بين سيكوانا والليغير من يجاور السيكوانيين، ومنها من يجاور الأرفيرنيين.

**2-** إن كلّ القبيلة التي تدعى الآن غاليّة وغلاطيّة، منخرطة في الحرب، وهي تتميّز بالإقدام والاندفاع إلى القتال من غير تردد؛ ومع ذلك فهي تتّسم بسلامة الطويّة وحسن الخلق. ولذلك فإن الغلاطيين في لحظة الاستفزاز يندفعون إلى القتال جهاراً ومن غير احتراس، وكل من شاء أن يلجأ إلى استخدام الحيلة والخداع ضدهم، يستطيع أن يتفوّق عليهم بيسر. وكل من يبتغي في أي زمان ومكان، وتحت أي ذريعة، أن يستفزّ الغلاطيين، فسوف يجدهم على أتمّ الاستعداد لمواجهة الخطر، حتّى لو لم يكن لديهم من دعم سوى قوتهم الذاتية وإقدامهم. وإذا ما أقنعهم أحدهم، فإنهم يقبلون أسباب المنفعة بسهولة ملفتة، ومن هنا فإنهم قادرون على استيعاب الثقافة على وجه العموم، كما أن لديهم القدرة على إدراك العلوم أيضاً. أمّا فيما يتعلّق بقوّتهم، فهي مرتبطة جزئياً بضخامة بنيتهم الفيزيائية، وجزء منها بكثرة أعدادهم. فليس أسهل من اجتماعهم معاً بأعداد كبيرة، لأنهم يتميّزون بالبساطة، والاستقامة، ويتعاطفون دوماً مع معاناة أقاربهم الذين يقع عليهم الظلم، كما يرون. وينعم هؤلاء كلّهم بالسلام، الآن، لأنهم مرغمون على أن يعيشوا وفق ما يأمر به مستعبدوهم الرومان؛ وقد سقت هذا الوصف استناداً إلى العادات والأعراف القديمة التي لا تزال حاضرة عند الجرمان حتّى وقتنا الراهن. فهذه القبائل هي من حيث طبيعتها وبناؤها الاجتماعي ليست متشابهة وحسب، بل تربط بينها أواصر القرابة أيضاً؛ وهي تعيش في بلاد معينة يشطرها نهر الرين؛ وأكثر مناطقهم متشابهة (مع أن جرمانيا تقع إلى الشمال)، إذا ما قارنا المناطق الجنوبية لأحد البلدين بالمناطق الجنوبية في البلد الآخر، والشمالية بالشمالية. وبفضل هذه السمة[3] التي يتّسم بها طابعهم، فإن هجراتهم تحدث بسهولة، لأنهم يتحرّكون حشوداً مع كامل قواتهم المقاتلة، بل الأصحّ أن نقول، إنهم ينهضون عشيرة واحدة دفعها إلى النزوح آخرون أقوى منها. وقد بذل الرومان في سبيل إخضاعهم

جهداً أقل بكثير مما بذلوه في إخضاع الإيبيريين؛ والحقيقة أن الرومان بدؤوا حربهم على الإيبيريين قبل وانتهوا منها بعد، لكنّهم أخضعوا هؤلاء كلّهم في أثناء الفواصل، وأنا أقصد هنا إلى كلّ القبائل التي تعيش بين الرين وجبال الألب. فالغاليّون كانوا يهاجمون أعدائهم دفعة واحدة تشترك فيها حشودهم كلّها، ولذلك كانوا يدمّرونهم مرّة واحدة؛ أمّا الإيبيريون فهم على الضدّ من هذا تماماً، إذ كانوا يدّخرون قواهم ويلجؤون إلى الصدامات الصغيرة في أماكن متفرّقة، وأوقات مختلفة، ووحدات صغيرة على طريقة حرب العصابات[4]. ومع أن كلّ الغلاطيين مقاتلون بطبيعتهم، إلاّ أنهم مع ذلك فرسان أكثر منهم مشاة، وأفضل فرق الفرسان الرومانية تتألّف من رجال هذه القبيلة. وعلى وجه العموم، فإن القبائل التي تعيش أبعد إلى الشمال على امتداد ساحل المحيط، هي دائماً أكثر نزوعاً نحو الحرب.

**3-** ويقولون[5]، إن البلجيكيين هم الأكثر شجاعة بين هذه القبائل كلّها. وقد انقسم هؤلاء إلى 15 قبيلة تعيش على ساحل المحيط بين الرين والليغر. ولذلك لم يكن بمقدور أحد سواهم أن يقاوم اجتياح الجرمان: القمريين والتفتونيين[6]. ويقال إن الأكثر شجاعة بين البلجيكيين أنفسهم، هم البيللوفاكيّون، يليهم السويسيونيون والدليل على كثرة أعدادهم هو التالي: يقال إنه تبيّن عن طريق الاستطلاع[7]، أن البلجيكيين كانوا يجنّدون فيما مضى حتّى 300.000 شخص قادر على حمل السلاح. وأنا كنت قد تحدّثت[8] عن أعداد الجيلفيتيين والأرفيريين وحلفائهم، ومن هذا كلّه تبدو كثرة أعداد السكّان عندهم جليّة، وكذلك الأمر بالنسبة لما أشرت إليه أعلاه: قدرة نسائهم الاستثنائية على إنجاب الأطفال وتربيتهم. ويرتدي سكّان غاليا «الساغات»[9]، ويطلقون شعر رؤوسهم طويلاً[10]، ويرتدون سروايل ضيقة[11]؛ ويرتدون بدلاً من القفاطين قمصاناً بأكمام، تتدلّى حتّى الأجزاء التناسلية والإليتين. وصوف الأغنام الغالي الذي يصنعون منه «ساغاتهم» الشعثاء (ويدعو الرومان هذه «الساغات» «لينات»)، صوف فظّ وطويل الوبر. ويربّي الرومان حتّى في أقصى شمالي البلاد قطعاناً من الأغنام الرقيقة الصوف. ويتوافق السلاح الغالي الثمن مع ضخامة أجسامهم: سيف طويل معلّق على الجنب الأيمن، وترس طويل قائم الزاوية وفق طول حامله، و«مَنْدَريس»[12]، وهو نوع خاص من المزاريق. وهناك من الغاليين من يستخدم القوس والمقلاع أيضاً. وعندهم إضافة إلى هذا، أداة خشبية تشبه «الفروسيف»[13]. وترمى هذه الأداة يدوياً وليس بالأنشوطة، ومع ذلك فإنها تصل إلى أبعد مما يصل إليه السهم. وهم يستخدمون هذه الأداة لصيد الطيور بشكل رئيس. وينام أكثر الغاليين حتّى الآن، على الأرض، كما

يتناولون طعامهم جالسين عليها فوق حشايا من القش. والطعام عندهم وفير، وهو يتألّف من الحليب واللحوم، خاصة لحم الخنزير، الطازج منه والمملّح. وتعيش الخنازير عندهم طليقة، وتتميّز بكبر حجمها، وقوّتها، وسرعتها؛ وهي تشكّل خطراً على أيّ شخص غريب يقترب منها، كما تمثل خطراً حتّى على الذئاب. أمّا منازل الغاليين فهي كبيرة مقبّبة الشكل، وتُبنى من الأخشاب والضفائر التي ترمى فوقها أكوام من القصب. وقطعان الغنم والخنازير عندهم كبيرة إلى درجة أن الغاليين يزوّدون روما وأكثر مناطق إيطاليا بالسروج واللحوم المملّحة. أمّا بناء الدولة عندهم، فإن أكثره أرستقراطي[14]، وكانوا قديماً ينتخبون زعيماً لهم في كلّ عام؛ وعلى النحو نفسه كانوا يتصرّفون في زمن الحرب، إذ ينتخبون قائداً عسكرياً واحداً لهم. لكنّ أكثرهم يخضع الآن لتعليمات الرومان. وثمّة عرف فريد يسود في اجتماعاتهم: إذا ما أحدث أحدهم ضجيجاً، وقطع حديث الخطيب، يقترب منه خادم ممتشقاً سيفاً مسلولاً ويأمره مهدداً بأن يصمت؛ وإذا لم يمتثل ويصمت، يكرر الخادم وعيده ثانية وثالثة؛ وأخيراً يقطع الخادم من معطف المشاغب قطعة يغدو الرداء بعدها عديم الفائدة. أمّا الزعم القائل بأن أعمال الرجال والنساء عندهم مناقضة تماماً لعمل الجنسين عندنا، فإن هذا عرف مشترك معمول به لدى كثير من القبائل البربرية.

**4**- ويقولون إن لدى القبائل الغالية كلّها على وجه العموم ثلاث مجموعات من الناس الذين يحظون باحترام خاص: البارد، والمتنبّئون، والدرويد[15]. والبارد هم المغنون والشعراء، والمتنبّئون هم الذين يقودون الشعائر الدينية، ويدرسون الطبيعة، أمّا الدرويد فإنهم إضافة إلى دراسة الطبيعة يشتغلون بالمسائل الأخلاقية. ويرون في الدرويد أكثر الناس عدلاً، ولذلك يعهدون إليهم النظر في النزاعات الخاصة والنزاعات الاجتماعية. ولذلك كان هؤلاء يسوون فيما مضى، الصدامات المسلّحة ويرغمون المتقاتلين على وقف القتال عندما يكون هؤلاء قد اصطفّوا ليقاتل بعضهم الآخر؛ وكان يعهد إليهم أيضاً بالحكم في جرائم القتل. ويترافق كمّ كبير من هذه الأعمال، كما يرون، بوفرة الخيرات في البلاد. وليس الدرويد وحدهم الذين يزعمون، بل يزعم آخرون[16] أيضاً، أن الأرواح خالدة والكون خالد[17]؛ ومع ذلك فإن النار والماء ينتصران عليهما في آخر المطاف.

**5**- وعلاوة على البساطة والشجاعة، فإن لدى الغاليين أيضاً كثير من الغباء والغطرسة، والشغف بالمجوهرات، فهم لا يكتفون بحمل الحليّ الذهبية- عقود حول الأعناق، وأساور حول المعاصم والأرساغ، بل ويرتدي وجهاؤهم ثياباً ملوّنة موشاة

بالذهب. وبسبب هذا الخواء الروحي فإنهم إذا انتصروا لا يطاقون، وإذا هزموا فقدوا توازنهم وذهلوا. وبالإضافة إلى ذلك، يترافق غباؤهم بتقليد بربري وغير مألوف يتسم به أكثر الشعوب الشمالية، فعندما يعودون من المعركة يعلّقون رؤوس أعدائهم على أعناق جيادهم، ويدقّون هذه الغنائم الحربية على مداخل منازلهم بالمسامير. ويقول بوسيدونيوس إنه تأتّى له أن يرى هذا المنظر بأمّ عينه في أماكن كثيرة، ومع أنه أحسّ بالاشمئزاز في بادئ الأمر، إلاّ أنه ما لبث أن اعتاد المنظر. أمّا رؤوس أشراف أعدائهم فقد كان الغاليون يعرضونها [محفوظة] بزيت الأرز، أمام الغرباء ليروها، وكانوا يرفضون التنازل عنها [أخذ ديتها] لقاء الذهب كلّه. وقد جعل الرومان الغاليين يقلعون عن تقليدَي تقديم القرابين والتنجيم المناقضين لما هو معمول به عندنا. فقد كانوا يطعنون الشخص المقضي عليه أن يكون ضحية[18]، طعنة في ظهره، ثمّ ينجّمون حسب تشنّجاته. ولكنّهم لم يباشروا تقديم الأضاحي إلاّ بحضور الدرويديين[19]. كما يذكر ضرب آخر من ضروب تقديم القرابين البشرية؛ فقد كانوا يرمون الضحايا بالسهام أو يصلبوهم في المعابد، أو يبنون نصباً ضخماً من القش والأخشاب، ثمّ يرمون هناك المواشي وشتّى الحيوانات البرية، وكذلك البشر، ويضرمون النار في هذا كلّه[20].

**6-** ويقول بوسيدونيوس، إنه ثمّة جزيرة في المحيط، تقع غير بعيد جدّاً في عرض البحر، قبالة مصبّ نهر الليغير مباشرة؛ وأن نسوة سامنيتيات مسكونات بديونيسيوس يعشن في هذه الجزيرة؛ وإن هؤلاء يتوسلن هذا الإله بتأدية طقوس صوفية، وما شابه ذلك من الحركات والأفعال المقدّسة؛ ولا يطأ الجزيرة أيّ رجل، مع أن النسوة يغادرنها للتواصل مع الرجال ثمّ يقفلن عائدات إليها بعد ذلك. ويواصل بوسيدونيوس حديثه قائلاً، إن هناك تقليداً يقضي برفع سقف المعبد مرّة في العام، ثمّ إعادته إلى مكانه في اليوم نفسه قبيل مغيب الشمس، وفي أثناء ذلك تحمل كلّ من النسوة حملتها من القش إلى السطح؛ وإذا ما سقطت من بين يديّ إحداهنّ حملتها، فإن الأخريات يمزّقنها إرباً إرباً؛ ثمّ يحملن أشلاء الضحية ويدرن حول المعبد وهنّ يصرخن مرددات «أيو- آ»[21] ولا يتوقفن عن الدوران حتّى يهدأ جنونهن؛ وبحسب قوله، إن المعتاد هو أن يطعن أحد ما [حتى الموت] المرأة المعنية. ولكنّ حكاية أرتيميدور الآتية عن الغربان، حكاية أكثر خيالية من هذه. فهو يروي: «أن هناك ميناء على ساحل المحيط يدعى ميناء "الغرابيْن"؛ إذ يظهر هنا غرابان الجناح الأيمن لكلّ منهما أبيض اللون بعض الشيء؛ فيأتي إلى هنا الذين بينهم خلافات ما، ويضع كلّ من المتخاصمين خشبة في مكان مرتفع ويضع عليها كسرة رغيف من خبز الشعير؛ فيأتي الطيران ويأكلان جزءاً من الخبز ثمّ

يبعثـران الجـزء الآخـر؛ فيربـح الـدعوى ذلـك الـذي يبعثـر الغرابـان خبـزه». إن حكايـة أرتيميدور هذه حكاية مغرقة في الخيال، أمّا روايته عن ديميترا وكورا، فهي رواية محتملة الحدوث أكثر من سابقتها. فهو يروي: «إنه توجد على مقربة من بريطانيا جزيرة يقدّمون فيها قرابين شبيهة بالقرابين التي يقدّمونها لديميترا وكورا في ساموتراقيا». وخبريته الأخرى هي أيضاً من ضروب الخبريات التي يمكن تصديقها، فهو يروي أنه تنمو في سلتيا شجرة كشجرة التين، ثمرها يشبه تاج العمود الكورينثي؛ وإذا ما جرحت الثمرة في رأسها، فإنها تخرج سائلاً قاتلاً يستخدم لتسميم رؤوس السهام. أمّا خبريته التالية، فإنها من الخبريات الأكثر شيوعاً: إن السلتيين كلّهم يحبّون المراهنات[22]، ولا يعدّ من المخجل عندهم أن يكون الشباب سخياً في تبذير مفاتنه. وفي وصفه لسلتيا يقدّمها إيثور بحجم مبالغ جدّاً في ضخامته، فهو ينسب إليها أكثر المناطق حتّى غادير، وهي المناطق التي ندعوها الآن إيبيريا؛ ثمّ يعلن سكّانها أصدقاء للإغريق راوياً عنهم كثيراً من الأشياء الفريدة، وهو ما لا يتوافق مع الواقع الراهن للأشياء وتعدّ خبريته التالية واحدة من الخبريات الفريدة الغريبة. فيقول، إنهم يحاولون ألاّ يكونوا شرهين كي لا تنمو لهم كروش كبيرة، وإذا ما تجاوز الفتى معيار الحجم المحدّد- مقاس الخصر، فإنه يعاقب. ذلكم ما أردت قوله عن سلتيا التي وراء الألب.

## الفصل الخامس

**1-** تمثل بريطانيا من حيث الشكل مثلثاً؛ ويمتدّ أطول جوانبها على موازاة سلتيا، وهي ليست أطول منها وليست أقلّ منها طولاً؛ فطول كلّ من الساحلين ما يقارب 4300 أو 4000 مرحلة؛ فالساحل السلتي من مصبّات الرين حتّى الأطراف الشمالية للبيرينيه قرب أكويتانيا، وكذلك الساحل البريطاني من كانتيوس، قبالة مصبّات الرين مباشرة، أقصى نقطة شرقية من بريطانيا، وصولاً إلى الطرف الغربي من الجزيرة، الواقع قبالة أكويتانيا والبيرينيه، إن هذه طبعاً، هي أقصر مسافة من البيرينيه إلى الرين، لأنّ المسافة الأطول، كما أسلفت[1]، تبلغ حوالي 5000 مرحلة. ولكن لعل هناك بعض الخروج عن وضعية التوازي هذه التي يشغلها النهر والجبال بالنسبة لبعضهما بعض[2]، لأنّ هناك بعض الالتواء في النهايات حيث يقتربان من المحيط.

**2-** وهناك أربع نقاط عبور يستخدمونها عادة للانتقال من القارّة إلى الجزيرة:

من مصبّات نهر الرين، ونهر سيكوانا، ونهر الليغير، ونهر غارومنا. لكنّ الذين يخرجون إلى البحر من مناطق الرين، لا ينطلقون من مصبّ النهر عينه، بل من ساحل المورونيين، جيران المينابيين. ويقع على ساحلهم أيضاً ميناء إيتيوس الذي استخدمه قيصر الإلهي محطة للعبور إلى الجزيرة[3]. فقد خرج إلى البحر ليلاً، ورسا في اليوم التالي عند الساعة الرابعة[4] قاطعاً طريقاً بحرية طولها 320 مرحلة[5]؛ وقد أدرك الأقماح وهي لا تزال في الحقول. فالمساحة الأكبر من الجزيرة تتألف من السهول التي تكسوها الغابات، مع أن الهضاب موجودة في أماكن كثيرة. وتنتج الجزيرة الأقماح، والقطعان، والذهب، والفضّة، والحديد. ومن هنا يستوردون هذه المواد، كما يستوردون منها أيضاً الجلود، والعبيد، وكلاب الصيد الأصيلة؛ ويستخدم السلتيون هذه الكلاب والكلاب المحلّية في الحرب أيضاً. وقامات سكّان بريطانيا أطول من قامات السلتيين، وشعرهم أقلّ شقاراً، لكنّ بنيتهم الجسدية أرقّ وأضعف. ويمكنني أن أسوق الآتي دليلاً على طول قاماتهم: لقد رأُيت بأمّ عيني في روما مراهقين بريطانيين قاماتهم أطول بنصف قدم من قامات أطول رجال المدينة، مع أن أرجلهم كانت مقوسة، وبنيتهم الجسدية لم تكن تتميّز، بالمتانة. وتشبه عادات البريطانيين عادات السلتيين جزئياً، ولكنّها في بعض جوانبها عادات أكثر بساطة، وبربرية[6]، فبعضهم إذا فاض عندهم إنتاج الحليب، لا يعرفون كيف يصنعون منه الجبن؛ وليس للبريطانيين خبرة في أعمال البستنة أيضاً، ومثلها باقي الأعمال الزراعية. وعند البريطانيين زعماء قبليين. وفي الحرب يتألّف أغلب القوّات المقاتلة عندهم من المركبات، كما هي الحال عند بعض السلتيين. ومدن البريطانيين هي الغابات، لأنهم يصنعون حول دائرة[7] واسعة من الأرض، سياجاً من الأشجار التي يرمون بعضها فوق بعض، وهناك داخل هذه الدائرة يبنون أكواخهم وحظائر قطعانهم، ولكن ليس لوقت طويل. وأغلب الهطولات في بلادهم هطولات مطرية وليست ثلجية، وحتّى في أيام الصحو يستمرّ الضباب عندهم طويلاً، بحيث لا تظهر الشمس أكثر من 3-4 ساعات عند منتصف النهار. وهذه [الظاهرات] تحدث أيضاً عند المورونيين، والمينابيين وجيرانهم كلّهم.

**3-** لقد توجّه قيصر الإلهي إلى الجزيرة مرتين؛ لكنّه اضطر أن يعود سريعاً من هناك قبل أن يتسنّى له القيام بأيّ عمل عظيم، أو التوغل في عمق البلاد؛ ففي بلاد السلتيين اشتعلت الانتفاضات في أوساط البرابرة، كما في أوساط جنوده[8]، وتحطّم كثير من سفنه في طور انتصاف القمر، إذ تتزايد شدّة المدّ والجزر في مثل هذا الوقت[9]. ومع ذلك حقّق قيصر نصرين أو ثلاثة على البريطانيين، مع أنه لم يرسل إلى

الجزيـرة سـوى فيلقين مـن قوّاتـه؛ وقـد سـاق معـه رهـائن، وعبيـداً، وكـثيراً مـن الغنـائم الحربيـة الأخـرى. ولكـن بعـض زعمـاء القبائـل في الجزيـرة عقـدوا في الوقـت الـراهن اتفاقيـات صـداقة مـع قيصـر أغسـطس[10]، فأرسـلوا إليـه السـفارات وعبّـروا عـن آيـات الاحـترام، وقـدّموا الهـدايا في الكـابيتول، ووضعوا الجزيـرة كلّهـا عمليـاً تحـت تصـرّف الرومـان. فهـم يتحمّلـون أعبـاء الرسـوم المفروضـة علـى البضـائع المصـدّرة إلى سـلتيا والمسـتوردة منهـا (أسـاور، وعقـوداً مـن العـاج والعظـم، والكهرمـان[11]، والأوانـي الزجاجيـة، ومـا شـابه مـن الأشـياء الصـغيرة) بقبـول ينفـي الحاجـة إلى وجـود حاميـة في الجزيرة؛ فقد كان مثل هذا الأمر يتطلّب إرسال فيلق بالحدّ الأدنى، وعدد من الفرسان لجباية الإتاوات من الجزيـرة، ولكـنّ نفقـات الجيش كـان يمكـن أن تستهلك واردات الإتاوات[12]؛ وفرض الإتاوات على السكّان، كـان يقضي بالضرورة تقليص الرسوم، وكان هذا يمثل في الوقت نفسه، بعض الخطورة في حال استخدام القوة.

**4**- وثمّة على مقربة من بريطانيا جزر صغيرة أخرى، إضافة إلى جزيـرة كـبيرة هـي جزيـرة هيرنـا[13]، الواقعـة في الشـمال علـى مـوازاة بريطانيـا؛ وعـرض هـذه الجزيـرة أكبر من طولها[14]. وأنا ليس بمقدوري أن أقول أيّ شيء محدّد عن هذه الجزيرة، ما عدا أن سكّانها أكثر توحّشاً من البريطانيين، لأنهم من أكلة لحوم البشر، ومغرقـون في الشـراهة[15]؛ فهـم يفـاخرون بأكـل جسـديّ والـديهم بعـد المـوت، ويمارسـون الجـنس علانية مع أمهاتهم وأخواتهم، إضافة إلى أي نسوة أخريات. وأنا إذ أنقل هـذا أدرك أنـه ليس لدينا شهود يوثق بهم ليؤكّدوا على وجود مثل هـذه العـادات، مـع أنـه يـروى بصـدد أكل لحوم البشر، أن هـذه العـادة موجـودة لـدى السـكيثيين، وعنـد الضـرورة كمـا في أوقـات الحصـار[16]، كـان يلجـأ إليهـا السـلتيون، والإيبيريـون، وكـثير مـن الشـعوب الأخرى[17]، كما تقول الروايات.

**5**- أمّـا معطياتنـا التاريخيـة عـن فـولا فإنهـا أكثـر إبهامـاً، بسـبب موقعهـا النـائي[19]، لأنّ فـولا تعـدّ مـن بـين البلـدان المعروفـة، أقصـى البلـدان الشـمالية. ولكـنّ روايات بيفوس عن فولا (كما عن باقي أماكن هـذه المنطقـة)، روايـات مختلقـة كلّهـا، وهو ما يتّضح من خبرياته عن البلدان المعروفة لنا[20]؛ ففي أكثر الحـالات جـاءت أخبـاره حتّى عن هذه الأخيرة أخباراً غير صحيحة، كمـا أسـلفت[21]، ولـذلك فمـن الواضـح أنـه كذب أكثر عندما تحدّث عن البلدان النائية. أمّا فيما يتعلّق بالظـاهرات السـماوية[22] ونظريـة الرياضـيات، فيبـدو أنـه أحسـن اسـتخدام الحقـائق الـتي تـوفّرت لـه عـن الـذين كـانوا يعيشـون على مقربة من المنطقة البـاردة، إذ تحـدّث عـن الشـحّ، ونقـص الحيوانـات

المنزلية والثمار، وعن أن الناس الذين يعيشون هناك يقتاتون بالدخن وسواء من الغلال، والثمار، والجذور، وحيث يوجد القمح والعسل، يصنعون منهما شراباً[23]. وعن القمح يقول بيفوس، بما أنهم لا يعرفون أياماً مشمسة لذلك يدرسون أقماحهم في عنابر كبيرة، إذ يجمعون السنابل هناك حزماً؛ فهم لا يستخدمون جرن الدق بسبب نقص الأيام المشمسة وكثرة الأمطار.

## الفصل السادس

**1**- بعد سلتيا التي وراء الألب، والقبائل التي تشغل هذه البلاد، ينبغي عليَّ أن أتحدّث عن الألب نفسها وعن سكّانها، ثمّ عن إيطاليا كلّها، ملتزماً نظام الوصف نفسه الذي يوحي بطبيعة البلاد. وعلى هذا النحو فإن بداية الألب ليست عند ميناء مونيكوس، كما قال بعضهم، بل في تلك المنطقة عينها التي تبدأ منها جبال الأبينين - قرب جنوا، مركز الليغوريين التجاري، وما يسمّى «فادا (أي المياه الضحلة) الساباتيين»، لأنّ جبال الأبينين تبدأ عند جنوا، بينما تبدأ جبال الألب عند الساباتيين؛ والمسافة بين جنوا والساباتيين 260 مرحلة؛ ومن ثمّ مسافة 370 مرحلة من الساباتيين إلى مدينة الأبينغاونوم؛ ويدعى الليغوريون الذين يقطنون هذه المدينة، إينغاونيين؛ ومن هناك حتّى ميناء مونيك 480 مرحلة. وبعد ذلك تقع في هذا الفاصل مدينة كبيرة، هي ألبيوس إينتيميلوس، التي يسكنها الإينتيميليون. وواقع الأمر هو أن البرهان على أن جبال الألب تبدأ عند الساباتيين، يُستنتج من هذه التسميات نفسها، لأنّ الألب كانت تدعى من قبل ألبيا، وكذلك أيضاً ألبيون؛ وحتّى يومنا هذا لا يزال الجبل الشاهق الواقع في منطقة اليابوديين، والذي يكاد يلامس جبل أوكرا وجبال الألب، لا يزال يدعى جبل ألبيا، وكأن الألب تمتدّ حتّى هذا الجبل.

**2**- ويقال، بما أن فريقاً من الليغوريين كان يدعى إينغاونيين، والفريق الآخر إينتيميليين، لذلك فإنه ثمّة أسس كافية لأن يدعى أحد مركزيّ تجمّعاتهم على البحر ألبيوس (ألبيّ) الأينتيميلي، والآخر ألبينغاونوم. ويضيف بوليبيوس إلى القبيلتين الليغوريتين المذكورتين، قبيلتين أخريين: قبيلة الأوكسيبيين، وقبيلة الديكيتيين. وعلى وجه العموم، يمكن القول، إن هذا الساحل كلّه، ابتداء من ميناء مونيكوس حتّى تيرينيا، ليس مفتوحاً للرياح وحسب، إنّما محروم من الموانئ أيضاً، ما عدا مراس صغيرة، واستراحات للسفن. وتشرف على هذا الساحل كذلك، جروف جبلية شاهقة جدّاً، لا تترك سوى ممرّ ضيّق عند البحر. ويشغل هذه المنطقة الليغوريون الذين تشكّل لحوم الحيوانات المنزلية وحليبها الغذاء الرئيس لأكثرهم، خاصة سكّان الجبال. وفي

الجبال وفرة من أخشاب بناء السفن، فأشجارها هناك كبيرة جداً، وقد يبلغ قطر بعضها 8 أقدام. وألوان كثير من هذه الأشجار ليست أقلّ تنوّعاً من الشجر التويفي[1]، إذا ما استخدمت أخشابها في أعمال النجارة. وهم على هذا النحو ينقلونها إلى ميناء جنوا، مثلها مثل القطيع، والجلود، والعسل، فيبادلون بها زيت الزيتون، والنبيذ الإيطالي (النبيذ عندهم قليل، مشوب باللبان[2] وقابض). ولا تنشأ هناك ما يسمّونها «جينات»[3] الخيل والبغال فقط، إنّما الخيتونات و«الساغات»[4] أيضاً. ويعثرون في بلادهم على كميات كبيرة من الكهرمان الأحمر[5]، الذي يدعوه بعضهم إيليكتر. ومع أن الليغوريين في الحملات فرسان رديؤون، إلاّ أنهم متميّزون كمشاة ثقيلة التسليح، وصناديد في العراك بالأيدي. ولأنهم يستخدمون التروس البرونزية، فقد استنتج بعضهم أنهم إغريق.

**3**- يعدّ ميناء مونيكوس استراحة بحرية للسفن غير الكبيرة، ولا يستوعب إلاّ عدداً محدوداً منها؛ ويعوم فيه معبد هرقل مونيكوس[6]. واستناداً إلى الاسم[7] يمكننا أن نفترض أن إبحار الماساليين على الساحل امتدّ حتّى ميناء مونيكوس[8]. والمسافة من ميناء مونيكوس حتّى أنتيبوليس لا تتعدى 200 مرحلة بكثير. ومن هنا حتّى ماساليا وبعدها بقليل تشغل قبيلة الساليين ما يشرف من جبال الألب على الساحل، كما تشغل بالمشاركة مع الإغريق، جزءاً معيناً من الساحل نفسه. وقد دعا الكتّاب الإغريق القدماء الساليين، «بالليغيين»[9]، ودعوا البلاد التي يشغلها الماساليّون «ليغيستيكا»؛ ويدعوهم الكتّاب المتأخرون «سلتوليغيين» ويلحقون بمنطقتهم السهل كلّه وصولاً إلى لوريون وروودان، وهي البلاد التي ينقسم سكّانها إلى 10 فرق، وكانوا يجندون جيشاً من المشاة والفرسان. وكانت هذه القبائل هي القبائل الأولى من قبائل السلت وراء الألب التي أخضعها الرومان لسيطرتهم، مع أنه تأتّى لهؤلاء أن يحاربوها ويحاربوا الليغوريين طويلاً، لأنّ هؤلاء الأخيرين كانوا يغلقون المعابر المؤدية إلى إيبيريا على طول الساحل. وكانوا فعلاً يشنون غزوات للسلب والنهب في البرّ والبحر، وكانوا أقوياء إلى حدّ أن الطرقات باتت بالكاد آمنة حتّى لعبور الجيوش الكبيرة. وبعد حرب استمرّت ثمانين عاماً بالكاد نجح الرومان في فتح طريق عرضها 12 مرحلة فقط لتلبية ضرورات الدولة. وبعد ذلك أخضع الرومان هذه القبائل كلّها، وفرضوا عليها الإتاوات، وبنوا لها دولتها.

**4**- بعد الساليين يأتي الألبيّون والألبيكيّون، والفوكونتيّون الذين يشغلون الشطر الشمالي من الجبال. ولكنّ الفوكونتيين الذين يسكنون مع الآخرين جنباً إلى جنب، يصلون حتّى الألّلوبروغيين؛ فهم يشغلون في أعماق بلادهم الجبلية وديانًا كبيرة

ليست أقل شأناً من تلك التي يشغلها الألّلوبروغيون. ويخضع الألّلوبروغيون والليغوريون لسلطة القضاة الذين يقيمون في ناربونيتس، أمّا الفوكونتيون (كما كنت قد قلت عن الفولكيين الذين يقطنون عند نيماوس)، فيعدّون مستقلّين[10]. ومن بين الليغوريين الذين يقطنون بين نهر فار وجنوا، يتمتّع سكّان الساحل فقط بالأهلية القانونية نفسها التي للإيطاليوتيين[11]، بينما يرسلون لسكّان المناطق الجبلية والياً من فئة الفرسان، كما هي الحال بالنسبة للقبائل الأخرى البربرية تماماً.

**5**- ويلي الفوكونتيين الإينكونيون، والتريكوريون، ثمّ الميدوليون الذين يشغلون القمم الأعلى. وعلى أي حال فإن أعلى هذه القمم يبلغ ارتفاعها كما يقولون، 100 مرحلة صعوداً ومثلها لدى الهبوط إلى حدود إيطاليا. وثمّة فوق، في بعض التجويفات العميقة بحيرة كبيرة ومنبعان غير بعيد واحدهما عن الآخر. ويشكّل أحد هذين المنبعين أصلاً ينطلق من دروينتسيا، وهو نهر جامح صاخب يهوي في نهر رودان، كما ينطلق من هذا المنبع أيضاً نهر دوريوس[12] الذي يجري بالاتجاه المعاكس، لأنّ دروينتسيا يجري أولاً عبر بلاد السالاسيين وسلتيا التي على هذا الجانب من الألب، ثمّ يندغم بنهر باد. ومن المنبع الآخر، بعيداً أدنى من المناطق المذكورة، ينبع نهر باد نفسه، وهو نهر ماؤه غزير وجريانه سريع؛ لكنّه في مراحل أخرى من جريانه، يغدو مجراه أعرض وجريانه أهدأ؛ وعندما يبلغ الوديان ترفده كثرة من الروافد، فيغدو أكثر عرضاً وأقوى ماء؛ ولكنّ فيضان الماء يحدّ من جريان النهر ويعصفه، وبعد ذلك يصبّ باد في البحر الأدرياتيكي بعد أن يكون قد تحوّل إلى أقوى نهر في أوروبا بعد نهر إيستر. ويعيش الميدوليون في الجزء الأكبر الواقع فوق نقطة التقاء إيسار مع رودان.

**6**- وفي الاتجاه نحو الأجزاء الأخرى من البلاد الجبلية المذكورة التي تتّجه نحو إيطاليا، يعيش التاورينيون (قبيلة ليغورية) والليغوريون الآخرون؛ ولهؤلاء الأخيرين الأرض التي تدعى دونّوس وكوتيوس[13]. وبعد هذه القبائل وباد[14] يأتي السالاسيّون، وإلى الأعلى منهم فوق القمم الجبلية، الكيفترونيّون، والكاتوريغيّون، والفاراغريّون، والنانتواتيّون، وبحيرة ليمينا التي يخترقها رودان ومنبع هذا النهر. وغير بعيد عن هذه الأماكن تقع أيضاً منابع الرين وجبل آدولا حيث يجري الرين شمالاً، وأدّوا بالاتجاه المعاكس ليصبّ في بحيرة لاريوس الواقعة قرب كوم. ووراء كوم الواقعة عند سفوح الألب، تقع على الجانب نفسه متجهة شرقاً، منطقة الريتيين والفينونيين، وتقع على الجانب الآخر منطقة الليبتونتيين، والتريدينتينيين، والستونيين وكثير من القبائل الصغيرة الأخرى النهّابة والفقيرة التي كانت تمتلك إيطاليا في زمن ما؛ وفي وقتنا الراهن

أبيد بعض هذه القبائل إبادة تامة، وأخضعت القبائل الأخرى تماماً، فباتت المعابر الجبلية الواقعة في منطقتهم، والتي كانت فيما مضى نادرة وعبورها خطر وصعب، باتت الآن كثيرة وآمنة [من قطاع الطرق] للبشر، وبات عبورها يسيراً جدّاً فقد أباد أغسطس قيصر عصابات قطاع الطرق، وشقّ الطرقات في كلّ مكان مناسب؛ فالتغلّب على الطبيعة لم يكن ممكناً في كلّ مكان، وشقّ الطريق عبر الصخور والجروف الجبلية الكبيرة التي كانت تشرف على الطريق أحياناً، وتسقط عليها في بعض الأحيان، كان يحمل دائماً خطر الموت في أعماق هوّة سحيقة أو واد لا قرار له. وكانت الطريق في بعض الأماكن هناك ضيّقة إلى حدّ التسبب بالدوار لكل من يعبرها ماشياً،ولا ينسحب هذا على الناس فقط، بل وعلى حيوانات النقل إذا لم تكن قد اعتادتها؛ لكنّ الحيوانات المحلّية تعبرها من غير صعوبات. وعلى هذا النحو فإن هذه الصعوبات لا تزال ماثلة، كما لا تزال ماثلة كذلك طبقات الجليد الكبيرة التي تزحف من الأعلى لتقطع طريق جماعات كبيرة من عابريّ السبيل وتقذف بهم إلى أعماق الهاوية؛ فكثير من طبقات الجليد هناك يستلقي بعضه فوق بعض؛ وتشبه الجليد أيضاً الكتل الثلجية التي يتراكم بعضها فوق بعض، ومن وقت لآخر تنفصل طبقات الثلج العليا عن السفلى قبل أن يكتمل ذوبانها تحت أشعة الشمس.

**7**- ويقع الشطر الأكبر من بلاد السالاسيين في واد عميق (تحيط الجبال بالمكان من الجانبين)، بينما يمتدّ بعض من أراضيها حتّى القمم الجبلية العالية. وعبر هذا الوادي تمتدّ طريق كلّ الذين يعبرون الجبال من إيطاليا. وتتفرّع الطريق بعد ذلك إلى اثنتين تمتدّ إحداهما عبر الجبل المسمّى بينين، وهي طريق غير سالكة لنقل البضائع عند قمم الألب، بينما تنعطف الطريق الأخرى أكثر نحو الغرب عبر منطقة الكيفترونيين(1). ونصادف في منطقة السالاسيين وجود مناجم ذهب كان السالاسيون يملكونها في الأزمنة المنصرمة، عندما كانوا أقوياء، كما كانوا يسيطرون على الممرّات الجبلية أيضاً. كما كان نهر دوريوس يقدّم لهم مساعدة كبيرة في استخراج الذهب، خاصة في غسله؛ ولذلك وزّعوا مياهه في كثير من الأماكن في قنوات فجففوا بذلك المجرى الرئيس للنهر تماماً، ومع أن هذا كان لصالح السالاسيين في سباقهم للحصول على الذهب، إلاّ أنه حمل الويلات للفلاّحين الذين كانوا يزرعون السهول الواقعة في الأسفل، لأنّ الأراضي حرمت من الري، بينما كان النهر قادراً على ريّ المنطقة كلّها، لأنّ مجراه كان يقع أعلى منها. ولهذا السبب كانت الحرب دائمة الحضور في العلاقات بين القبيلتين. ولكن بعد أن فرض الرومان سيطرتهم، خسر

السالاسيون مناجم الذهب مع الأرض؛ ولكنّ المياه بقيت لهم يبيعونها لمتعهدي الدولة الذين أخذوا على عاتقهم مهمّة استثمار مناجم الذهب؛ ولأن هؤلاء المتعهدين كانوا جشعين جدّاً، فإن النزاع بينهم وبين السالاسيين لم يتوقّف. وعلى هذا النحو فإن ذرائع كثيرة للحرب كانت تتوفّر للمواطنين الرومان الذين كانوا يسعون من وقت لآخر لقيادة الجيوش ويرسلون إلى هذه المناطق. وواقع الأمر هو أن السالاسيين كانوا حتّى وقت قريب يقاتلون الرومان تارة ويتوقفون عن قتالهم تارة أخرى، وقد بقي لديهم من القوّة ما يكفي لإلحاق أذى كبير بكلّ الذين كانوا يعبرون الجبال الواقعة في بلادهم. فقد أرغمو[15] حتّى ديسيموس بروتوس لدى فراره من موتينا، أن يدفع لهم إتاوة قدرها دراخما واحدة عن كلّ شخص؛ وعندما قضى ميسالوس الشتاء على مقربة من بلادهم، كان عليه أن يدفع لهم ثمن الخشب الذي يستهلكه للتدفئة، وصناعة المزاريق، وتأدية التمارين الرياضية[16]. ومرّة نجح هؤلاء القوم في أن يستولوا على أموال من قيصر نفسه؛ فقد دحرجوا الصخور من فوق على فيالقه، متذرّعين بأنهم يشقّون طرقاً ويبنون جسوراً فوق النهر. ومع ذلك نجح أغسطس بعد ذلك بإخضاعهم تماماً، ثمّ جاء بهم إلى مستعمرة إيبوريديا الإيطالية كغنيمة حربية وباعهم عبيداً؛ ومع أن الرومان استعمروا هذه المدينة[17] رغبة منهم في أن يجعلوا منها نقطة استناد دفاعية ضدّ السالاسيين، إلاّ أن السكّان عجزوا من مقاومة هؤلاء مقاومة فعّالة، إلى أن قضى الرومان عليهم قضاء تاماً. وعلى هذا النحو فإنه على الرغم من أن عدد الباقي من الأسرى كان 36.000، وعدد القادرين على حمل السلاح 8000، إلا أن تيرينسيوس فارون، القائد الذي قهرهم، باع جميعهم «تحت الرمح»[18]. وقد أرسل قيصر إلى هناك 3000 روماني وأسّس مدينة أوغسطا[19] في المكان عينه الذي كان يقوم فيه معسكر فارّون؛ وفي الوقت الراهن تعيش البلاد المجاورة كلّها بسلام، بما في ذلك الممرّات العليا التي تمتدّ عبر الجبال.

**8**- تلي ذلك بالترتيب أجزاء الجبال المتّجهة نحو الشرق ونحو الجنوب؛ ويشغلها الريتيون والوينديليكيون التي تجاور مناطقهم مناطق الجيلفيتيين والبويين، لأنّ أراضيهم تقع على مقربة من سهول هذه القبائل. وتمتدّ منطقة الريتيين حتّى شطر إيطاليا الواقع فوق فيرونا وكوم (ونقول في السياق، إن النبيذ «الريتي» الذي يهيأ لي أنه لا يقلّ جودة عن أفضل أنواع النبيذ الإيطالي، ينتج هناك على سفوح الألب الريتية)، وتصل أيضاً حتّى المناطق التي يجري فيها الرين؛ وينتمي إلى هذه القبيلة الليبونتيون والكامونيون. ويشغل الوينديليكيون والنوريكيون الشطر الأكبر من الجانب الخارجي لسفوح الجبال، بالمشاركة مع البيرونيين والجنويين[20] (وينتمي هؤلاء

الأخيرون إلى الإيلليريين). وكانت هذه القبائل كلّها تشنّ بين الحين والآخر غزوات ضدّ أجـزاء إيطاليـا المجـاورة لهـا، كمـا ضـدّ بـلاد الجيلفيتـيين، والسـيكوانين، والبـويين، والجرمان. وكان الليكـاتيون، والكلاوتينـاتيون، والفينونيـون أكـثر المقـاتلين شـجاعة وبأسـاً بـين الوينـدليكيين كلّهـم، أمّـا بـين الـريتيين فـإن الأشـجع هـم الروكـانتيون والكوتوانتيـون. وينتمـي إلى الوينـدليكيين كـلّ مـن الأيسـتيونيين، والبريغـانتيين ومـدنهم، بريغـانتيوس، وكـامبودونوم، وداماسـيا الـتي تعـدّ بمثابـة أكروبـوليس الليكاتيين. وقد شاعت حكايات عن قسوة هذه القبائل النهّابة ضدّ الإيطاليين. فعندما كانت هذه تستولي على قرية أو مدينة لم تكن تكتفي بقتل الذكور كلّهم ومن كلّ الأعمار، إنّما كانوا يقتلون حتّى الرضّع، بل والنسوة الحوامل اللواتي كان المتبّئ يقول أنهن يحملن بذكور.

**9-** وتأتي بعد هذه القبائل، القبائل التي تسكن على مقربة من منخفض البحر الأدرياتيكي والمناطق المحيطة باكويليا: الكارنيون، وكذلك بعض من النوركيين؛ كما ينتمي التاوريسكيون إلى النوركيين أيضاً. وفي حملة صيفية واحدة، أرغم طيباريوس وشقيقه دروز هذه القبائل كلّها على أن توقف غزواتها الجموحة، وها قد حلّ الآن العام 33 وهي تعيش بسلام وتؤدّي الإتاوة بانتظام. وتنتشر في شتّى أنحاء البلاد الألبية الجبلية مناطق مرتفعات مؤهّلة تأهيلاً ممتازاً للعمل الزراعي، كما أحسن السكّان حراثة الوديان؛ ومع ذلك فإن قسماً كبيراً من الأراضي القريبة من القمم الجبلية، حيث يتمركز عادة قطاع الطرق، يتميّز بالشح والجدب، إمّا بسبب الصقيع، وإما بسبب الطابع الذي تتسم به تربة التلال. وعليه فإن الشحّ في القوت والمواد الضرورية الأخرى، دفعهم في بعض الأحيان إلى طلب الرأفة من سكّان السهول لكي يزودهم بالمواد التموينية؛ ورداً للجميل كانوا يزوّدونهم بالأخشاب، والقطران، والقار، وعيدان الإشعال، والشمع، والعسل، والجبن، لأنه كان لديهم وفرة كبيرة من هذه المواد. وإلى الأعلى من الكارنيين يقع جبل الأبينين[21] مع البحيرة التي تتّصل بنهر إيسار[22]؛ وبعد أن يستقبل هذا الأخير نهر أتاغيس[23]، يصبّ في البحر الأدرياتيكي. وينبع من البحيرة عينها نهر يدعى أتيسين[24]، يصبّ في نهر إيستر. وينبع إيستر فعلاً من هذه الجبال التي تنقسم إلى أجزاء كثيرة وكثرة من القمم؛ فمن ليغوريا حتّى هذه النقطة تمتدّ بلا انقطاع أجزاء الألب العالية، تاركة انطباعاً بأنها جبل واحد، ومن ثمّ تتقطع وتغدو أكثر انخفاضاً، لتعود بعد ذلك إلى الارتفاع من جديد مشكلة كثيراً من الشعب وكثرة من القمم. والأولى من هذه، هي سلسلة الجبال الواقعة على الجانب الآخر من

الرين والبحيرة[25]، مع انعطاف نحو الشرق لمرتفع غير كبير؛ وهناك على مقربة من السويفيين والغابة الهركانية، تقع منابع إيستر. وهناك أيضاً سلاسل أخرى تتّجه نحو إيلليريا والبحر الأدرياتيكي، ومن هذه الأخيرة جبل أبينين الذي سبق ذكره، وكذلك تولّ وفليغاديا، وهما الجبلان اللذان يشرفان على الويندليكيين؛ وينبع من هنا دورا، وكلانيس وكثير من الجداول الجبلية الأخرى التي تصبّ في إيستر.

**10**- ويأتي بعد ذلك اليابوديون[26] (نتحوّل الآن إلى هذه القبيلة الخليط من الإيلليريين والسلت[27])، ويعيش هؤلاء قرب هذه المناطق؛ ويقع على مقربة من هذه القبيلة، جبل أوكرا. لقد كان اليابوديون قبلاً كثيري العدد وشجعاناً، فامتلكوا المكان على جانبيّ الجبل وغدا موطنهم الأمّ، وفرضوا سيطرتهم على هذه الأنحاء عنوة، لكنّ أغسطس قيصر هزمهم فيما بعد وأخضعهم نهائياً. ومدنهم هي ميتول، وأروبينا، ومونيتيوس، وويندون. وبعد اليابوديين تأتي في السهل مدينة سيغيستيكا التي يجري على مقربة منها نهر ساف الذي يصبّ في إيستر. وموقع هذه المدينة ملائم لإدارة عمليات عسكرية ضدّ الداكيين. ويعدّ جبل اوكرا أكثر أجزاء الألب انخفاضاً في المنطقة التي تجاور فيها جبال الألب بلاد الكارنيين، وعبره تنقل البضائع من أكويليا بالعربات إلى ناوبورت مسافة تزيد قليلاً عن 400 مرحلة؛ ويبحرون بالبضائع من هذه النقطة عبر الأنهار حتّى إيستر ومناطق في هذا الجزء من البلاد؛ وحقيقة الأمر أن هناك نهر[28] يجري فعلاً على مقربة من ناوبورت، وهو ينبع من إيلليريا، وصالح للملاحة ويصبّ في ساف، ولذلك فإن نقل البضائع فيه إلى الأسفل، إلى سيغيستيكا وبلاد البانونيين والتاوريسكيين[29]، أمر يسير. ويلتقي ساف على مقربة من المدينة[30]، نهر كولابيس؛ والنهران صالحان للملاحة وينبعان من الألب. وتسرح في الألب أفراس وثيران برية. ويقول بوليبيوس، إنه يعيش في الألب حيوان ما شكله فريد[31]، فهو من حيث مظهره يشبه الأيل في كلّ شيء، ما عدا العنق والوبر، (إذ يرى بوليبيوس أنه يشبه الخنزير في هذين)، وله تحت ذقنه بروز غضروفي بقدر راحة الكفّ، مكسوّ بوبر سماكته كسماكة ذيل الحصان.

**11**- وثمّة بين الممرّات الجبلية التي تقود من إيطاليا إلى سلتيا الخارجية أو الشمالية، ممرّ يقود عبر منطقة السالاسيين إلى لوغدونوم؛ وهذا الممرّ ممرّ مزدوج؛ أحد خطّيه صالح لنقل الشحنات على طول القسم الأعظم من امتداده، وهو يسير عبر منطقة الكيفرترونيين، بينما يمتدّ الفرع الآخر منه عبر بينين، وهو شديد الانحدار وضيّق، لكنّه قصير[32]. وتقع لوغدونوم في مركز البلاد (وكأنها الأكروبوليس)، لا بسبب

التقاء الأنهار فقط، إنّما لأنها تقع على مقربة من شتّى أجزاء البلاد. ولهذا السبب شرع أغريبا بمدّ الطرقات من لوغدونوم: واحدة عبر جبال كيمين إلى منطقة السانتونيين وأكويتانيا ،والثانية إلى الرين، والثالثة إلى المحيط (عبر بلاد البيللوفاكيين والأمبيانيين)، والرابعة إلى ناربونيتيس والساحل الماسالي. وعلى بينين نفسه (إذا خلّفت لوغدونوم والبلاد الواقعة إلى الأعلى منها، على يمينك)، هناك طريق جانبية تقود بعد عبور رودان وبحيرة ليمين، إلى سهول الجيلفيتيين؛ وثمّة ممرّ من هناك عبر جبل يورا إلى منطقة السيكوانيين واللينغونيين؛ وتفترق الممرّات عبر هذه المناطق بالاتجاهين: إلى الرين، وإلى المحيط.

**12**- ثمّ يخبر بوليبيوس بعد ذلك، أنهم عثروا في أيامه، مقابل أكويليا تماماً، في منطقة النوريكيين- التاوريسكيين[33]، على منجم ذهب ملائم لاستخراج المعدن الثمين إلى درجة إنك لو رفعت الطبقة السطحية من التربة بعمق قدمين لعثرت فوراً على الذهب المكنون؛ ولم يتجاوز عمق توضّع الفلزات 15 قدماً في أيّ يوم من الأيام؛ ويواصل بوليبيوس روايته فيقول، إن جزءاً من الذهب كان عبارة عن فلزات طبيعية حجم واحدتها كحجم حبة الترمس أو حبة الفول، ولا يشكّل الفاقد منها أثناء صهرها سوى $\frac{1}{8}$ من الجزء، ومع أن ما يتبقّى يحتاج إلى الصهر أيضاً، إلاّ أن المحصلة تبقى مجدية جدّاً؛ ولكن بعد شهرين من استثمار إيطاليين وبرابرة للمنجم، هبطت أسعار الذهب فجأة في إيطاليا كلّها بمعدل $\frac{1}{3}$، وعندما لاحظ التاوريسكيون هذا، طردوا شركاءهم وأخذوا يستخرجون الذهب ويبيعونه بأنفسهم. ويمتلك الرومان الآن مناجم الذهب كلّها[34]. وكما هي الحال في إيبيريا[35]، كذلك هنا أيضاً، فإضافة إلى الذهب المستخرج من المناجم، تحمل الأنهار بدورها الرمال الذهبية، لكنّ كميته هنا أقل. وعند حديثه عن حجم الألب وارتفاعها، فإن بوليبيوس يقارنها بأعلى جبال الإغريق: تايجيت، ليكيوس، بارناس، الأوليميب، بيليون، أوسا؛ وفي تراقيا: جيموس، رودوبا، ودوناكوس؛ وبحسب قوله، إن أي شخص متمرس يمكنه أن يتسلق أياً من هذه الجبال في يوم واحد تقريباً، كما يمكنه أن يدور حول أي منها في يوم واحد، بينما يستحيل أن يتسلق أحد الألب حتّى في خمسة أيام، فطولها 2200 مرحلة[36] على امتداد السهول[37]. ولكنّ بوليبيوس لا يشير إلاّ إلى أربعة ممرّات جبلية: ممرّ عبر بلاد الليغوريين (وهو الأقرب إلى البحر التيريني)، وممرّ عبر منطقة التاورينيين، وهو الممرّ الذي عبره هنيبعل[38]، وممرّ عبر منطقة السالاسيين، والممرّ الرابع عبر منطقة الريتيين، وهذه الممرّات كلّها ممرّات انهدامية. ويقول بوليبيوس إن في هذه الجبال



obeikandl.com

بحيرات كثيرة، لكنّ ثلاثاً منها فقط بحيرات كبيرة؛ واحداها بحيرة بيناك التي يبلغ طولها 500 مرحلة، وعرضها 30 مرحلة[39]، ومنها ينبع نهر مينيسيوس؛ ثمّ بحيرة فيربان وطولها 400 مرحلة، أمّا عرضها فأقلّ من عرض البحيرة الأولى، ومنها ينبع نهر آدّوا؛ والبحيرة الثالثة، هي بحيرة لاريوس التي يبلغ طولها حوالي 300 مرحلة، وعرضها 30[40]، وينبع منها نهر كبير، هو نهر تيسين؛ وتصبّ هذه الأنهار كلّها في نهر باد. وذلك هو ما كان يجب عليّ قوله عن جبال الألب.



obeikandl.com